جامعـــة الأزهـــر
كليـــة الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالزقازيق
الـمـجلـة العلميـــة

الآيات الكونية في سورة الأعلي
دراسة موضوعية

إعداد

د/ رفيدة محمود شوقي عمر سرحان

قسم التفسير وعلوم القرآن، كلية الدراسات الإسلامية
بالعاشر من رمضان ، جامعة الأزهر

(العدد الخامس عشر)
(الإصدار الأول- يونيو)
(١٤٤٧هـ - ٢٠٢٥م)

علمية- محكمة- نصف سنوية

الآيات الكونية في سورة الأعلى، دراسة موضوعية

رفيدة محمود شوقي عمر سرحان.

قسم التفسير وعلوم القرآن، كلية الدراسات الإسلامية بالعاشر من رمضان ، جامعة الأزهر،مصر.

البريد الإلكتروني: rofaydaomar.2075@azhar.edu.eg

الملخص :

يهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على الآيات الكونية الواردة في سورة الأعلى مع تفسيرها وبيان معانيها، والدلالة الكونية لها، وإبراز مقاصدها، وتم عرض الآيات التي تناولت الآيات الكونية ودلالتها في القرآن، وقد خلص البحث في نتائجه إلى: أن الآيات الكونية في سورة الأعلى تصور مشاهد كونية عظيمة تدعو الإنسان إلى التفكر في الخلق والإبداع الإلهي. تستعرض سورة الأعلى دلالات كونية متعددة تتراوح بين التسبيح وتسوية الإنسان والتقدير والهداية والإحياء والإماتة، كما تُبرز التوازن الكوني والتدبير الإلهي للأشياء، فهي تذكّر بتسخير الكون للإنسان، وبقدرة الله على الإحياء والإماتة، مما يعمّق الإيمان بالله ويدعو إلى تسبيحه وتنزيهه عن كل نقص، هذه الدلالات الكونية تقدم صورة شاملة لقدرة الله المطلقة في الخلق، وتحث المؤمنين على التفكر في هذه الآيات والاعتراف بعظمة الخالق سبحانه وتعالى،وقد تعرضت السورة للتسبيح والتسبيح في القرآن الكريم ليس مجرد ذكر لفظي، بل هو عبادة شاملة تشمل الكون بأسره، ودلالات التسبيح الكونية تجعل الإنسان يدرك عظمة الخالق، ويحثه على الانسجام مع هذا النظام المتكامل، كما أن التسبيح يعكس وحدة المخلوقات في تعظيم الله وتقديسه، كما تعرضت السورة لتسوية الإنسان الذي يمثل إبداعًا إلهيًا يعكس التكامل بين الروح والجسد، كما أن دلالاته الكونية تبرز ارتباط الإنسان بالنظام الكوني العام، مما يؤهله للقيام بدوره كخليفة ومستخلف في الأرض، وقد تعرضت السورة أيضا للتقدير الإلهي في الكون الذي هو نظام متكامل يعكس

عظمة الله وحكمته في خلقه، ويظهر كل تفاصيل الكون، من حركة المجرات إلى دورة حياة الإنسان، وهذه الدقة والتناغم الكوني لتعزيز إيمانه بخالقه، ودوره في إعمار الأرض، كما تعرضت السورة للهداية الإلهية وهي ليست قاصرة على الإنسان في طريق الإيمان، بل تشمل الكون بأسره في نظامه وحركته. وقد بيّن القرآن الكريم هذه الهداية الكونية لتكون دليلاً للناس على عظمة الله وربوبيته، ومن تأملها بقلب صادق، وصل إلى الهداية الإيمانية التي تُنجيه في الدنيا والآخرة، كما تعرضت السورة لدورة الحياة والتحولات البيئية التي تعكس قدرة الله في الخلق والإحياء والإماتة، وهذه التحولات ليست مجرد ظواهر طبيعية، بل هي دلائل كونية تدعو الإنسان إلى التأمل في عظمة الخالق وشكره على نعمه.

الكلمات المفتاحية: آيات – كونية –سورة – الأعلى– موضوعية .

Cosmic verses in Surat Al-Ala ،an objective study

Rufaida Mahmoud Shawqi Omar Sarhan.
Department of Interpretation and Qur'anic Sciences, Faculty of Islamic Studies, 10th of Ramadan, Al-Azhar University, Egypt.
Email : rofaydaomar.2075@azhar.edu.eg:

Abstract:
This research aims to shed light on the cosmic verses contained in Surat Al-A'la, along with their interpretation and clarification of their meanings, their cosmic significance, and highlighting their purposes.The verses that dealt with the cosmic verses and their significance in the Qur'an were presented.The research concluded in its results that: The cosmic verses in Surat Al-A'la depict Great cosmic scenes that call on man to contemplate divine creation and creativity. Surah Al-Ala presents multiple cosmic connotations ranging from praise, human equality, appreciation, guidance, revival, and death.It also highlights the cosmic balance and divine management of things.It reminds of the universe's subjugation of man, and of God's ability to revive and cause death, which deepens faith in God and calls for His praise and purification from every deficiency.These connotations Universalism presents a comprehensive picture of God's absolute power in creation, and urges believers to reflect on these verses and acknowledge the greatness of the Creator, Glory be to HimThe surah has been subjected to praise, and praise in the Holy Qur'an is not just a verbal mention, but rather a comprehensive worship that includes the entire universe.The cosmic connotations of praise make a person realize the greatness of the Creator, and urge him to harmonize with this integrated system.Also, praise reflects the unity of creatures in glorifying and sanctifying God.The surah also presents the leveling of man, who represents a divine creativity that reflects the integration between the soul

and the body, and its cosmic connotations highlight man's connection to the general cosmic system Which qualifies him to carry out his role as a caliph and successor on earth.The Surah was also exposed to divine appreciation in the universe, which is an integrated system that reflects the greatness of God and His wisdom in His creation, and shows all the details of the universe, from the movement of galaxies to the cycle of human life, and this precision and cosmic harmony to enhance his faith in his Creator, and his role In the reconstruction of the earth, the surah also presents divine guidance, which is not limited to man in the path of faith, but rather includes the entire universe in its system and movement. The Holy Qur'an has made this universal guidance clear to be evidence for people of God's greatness and lordship, and whoever contemplates it with a sincere heart will reach the guidance of faith that will save him in this world and the hereafter.The Surah also addresses the cycle of life and environmental transformations that reflect God's ability to create, revive, and cause death, and these transformations are not just phenomena.Natural, but rather universal evidence that calls a person to contemplate the greatness of the Creator and thank Him for His blessings.

Keywords: Verses - Cosmic - Surah - The highest - Objectivity.

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، وجعل فيه من الآيات ما يدل على عظمته وقدرته في خلق الكون وإبداعه، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

يُعد القرآن الكريم دستورًا إلهيًا شاملًا يتضمن آيات كونية عظيمة تدعو الإنسان إلى التأمل في خلق الله وإدراك عظمته.

منذ أن نزل القرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يشكل معجزة إلهية تتضمن في آياته شفاء وهدى للمؤمنين، ويحتوي على دعوة صادقة للتفكر والتأمل في الكون وأسراره.

ومن السور التي تبرز فيها هذه الآيات سورة الأعلى، التي تضمنت إشارات كونية تدعو إلى التفكر في الخلق والتقدير الإلهي والنظام الدقيق الذي يَحكُم الكون.

جاءت سورة الأعلى لتذكر الإنسان بعظمة الرب المنزه الخالق الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأخرج المرعى فجعل منه غثاءً أحوى، في تصوير بديع لدورة الحياة والطبيعة. هذه الآيات لا تقف عند الوصف الحسي، بل تتجاوز ذلك لتُرسخ في القلوب معاني التوحيد والإيمان بقدرة الله المطلقة، فهي دعوة للمؤمنين بالتفكر في خلق الله، وكيف أن كل شيء في الكون يسير وفق مشيئة الله وتقديره.

ومن خلال هذه الآيات، يُظهر لنا القرآن أن الله ليس فقط الخالق، بل المدبر لكل شؤون الكون، وأنه أرسل رسوله ليكون هداية للناس، ليخرجهم من الظلمات إلى النور. لقد تم عرض هذا النظام الكوني في سورة الأعلى بأسلوب

بديع يعكس تناغمًا بين النصوص الكريمة وبين الواقع المادي للكون، حيث يمكن للإنسان أن يرى في آيات الله مظاهرَ من تدبيره وحكمته.

وفي هذا البحث، سنستعرض الآيات الكونية الواردة في سورة الأعلى، مع تفسيرها وبيان معانيها والدلالة الكونية لها وأوجه الإعجاز الكوني والعلمي الذي تنطوي عليه، مستندين إلى ما ورد في كتاب الله تعالى وكتب التفسير، سائلين الله التوفيق والسداد.

أهمية البحث:

- تعريف بالآيات الكونية وبيان أهميتها في القرآن الكريم.
- الكشف عن الإعجاز العلمي والكوني في القرآن الكريم.
- توجيه الإنسان إلى الاستفادة من الكون.

أهداف البحث:

- تحليل الآيات الكونية في سورة الأعلى تحليلًا موضوعيًا، واستخراج دلالاتها العلمية.
- الكشف عن العلاقة بين الآيات الكونية في السورة وتأثيرها على الإنسان.
- ربط النصوص القرآنية بالحقائق العلمية.
- تعميق الإيمان بالله من خلال تدبُّر آيات الخلق والتسخير الكوني في السورة.
- استنباط الدروس التربوية من الآيات الكونية، مثل: التواضع، الشكر، الاستخلاف في الأرض.
- إبراز دور القرآن في تحفيز البحث العلمي، من خلال التأمل في الآيات الكونية.
- إثراء الدراسات القرآنية الموضوعية بمنهجية تحليلية تربط بين التفسير والواقع.
- تقديم نموذج تطبيقي لكيفية دراسة السور القصيرة من خلال المحاور الكونية.

تساؤلات البحث:

١- ما المقصود بالآيات الكونية التي وردت في سورة الأعلى؟

٢- كيف تدعو الآيات الكونية في سورة الأعلى الإنسان إلى التفكر في خلق الله عز وجل؟

٣- كيف يظهر وصف الله في خلقه وتسويته للكائنات في قوله: "الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ"؟

٤- ما الحكمة من الإشارة إلى قدرة الله في تسوية الخلق وتقديره للأشياء في قوله: "وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ"؟

٥- ما دلالة الإشارة إلى إنبات المرعى في قوله: "وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ" على النظام الكوني الدقيق؟

٦- ما الدروس المستفادة من وصف تحول المرعى إلى "غُثَاءً أَحْوَىٰ"، وما دلالة ذلك على دورة الحياة في الطبيعة؟

٧- كيف تؤدي هذه الآيات الكونية إلى التذكير بالبعث واليوم الآخر؟

٨- ما دور هذه الآيات الكونية في تعزيز التفكر العقلي والإيماني؟

الدراسات السابقة:

١- آيات العقائد في سورة الأعلى دراسة تحليلية / عبدالعزيز رشيد أيوب، وأحمد يوسف النصف، الهدف من البحث دراسة آيات العقائد في سورة الأعلى، بحث علمي نشر في مجلة كلية الشريعة والقانون بتفهنا الأشراف – دقهلية، عام ٢٠١٩.

٢- سورة الأعلى دراسة تحليلية موضوعية / إيهاب عبده محمد حيدرة. رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير- جامعة عدن، تعرَّض الباحث فيها لتفسير السورة تفسيرًا تحليليا ثم موضوعيًّا متعرضًا لما ورد في السورة من موضوعات مثل التسبيح وصفة العلو والخلق والهداية ونزول القرآن والبشارة وغيرها...

٣- سورة الأعلى دراسة تحليلية / د. أيمن عبد الراضي عبد السلام، يكشف عن بعض أسرار ولطائف سورة الأعلى من خلال التفسير التحليلي لها، بحث علمي نشر في مجلة كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية، عام ٢٠٢٣.

٤- سورة الأعلى دراسة نحوية أسلوبية / د. محمد إسماعيل، استخرج أهم ما فيها من عناصر نحوية مهيأة للدراسة والبحث لإظهار أسلوب القرآن في طرحه لها.

٥- الآيات الكونية دراسة عقدية / د.عبد المجيد الوعلان

رسالة علمية أراد فيها الباحث جمع الآيات الكونية الواردة في النصوص الشرعية، مع بيان المنهج الشرعي تجاهها، وبيان المخالفات العقدية التي تقع في ذلك، وبيان الموقف العقدي الصحيح من التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن والسنة النبوية.

أما بحثي فقد أبرزتُ فيه الآيات الكونية الخاصة بسورة الأعلى.

خطة البحث:

قد رأيتُ أنَّ طبيعةَ هذا البحث يتكون من: مُقَدِّمة، وفصلين، وخاتمة، والفهارس.

أولا المقدمة: وتشتمل على: توصيف لموضوع البحث، وأهميته، وأهدافه، وتساؤلات البحث، والدراسات السابقة، ومنهجي فيه.

ثانيا : الفصل الأول: الآيات الكونية في القرآن الكريم

المبحث الأول: المراد بالآيات الكونية.

المبحث الثاني: أنواع الآيات الكونية.

المبحث الثالث: أغراض ومقاصد الآيات الكونية في القرآن الكريم.

ثالثا: الفصل الثاني: تفسير الآيات الكونية في سورة الأعلى

المبحث الأول: بين يدي سورة الأعلى

ويشتمل على مطالب:

المطلب الأول: أسماء السورة الكريمة ووجه التسمية.
المطلب الثاني: كلمها وحروفها وعدد آياتها واختلاف القراء.
المطلب الثالث: فضل السورة، واستعمال النبي صلى الله عليه وسلم لها.
المطلب الرابع: حول النزول.
المطلب الخامس: التعرف على مقصد السورة وموضوعها الرئيس.
المطلب السادس: مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها.

المبحث الثاني: الآيات الكونية ودلالتها في سورة الأعلى

ويشتمل على مطالب:
المطلب الأول: التسبيح ودلالته الكونية. "سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى".
المطلب الثاني: الإشارة إلى الخلق والتسوية. "الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى".
المطلب الثالث: التقدير والهداية الإلهية في الكون. "وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى".
المطلب الرابع: دورة النبات ودلالتها الكونية. "وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى".
المطلب الخامس: التحول البيئي ودورة الحياة. "فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى".
خامسا: الخاتمة: وتتضمن أهم النتائج والتوصيات.
سادسا: الفهارس: وتشتمل على أهم المراجع التي اعتمدتُ عليها في البحث، وفهرس الموضوعات.

منهجي في البحث:

اعتمدت في هذا البحث على المنهج التحليلي الذي يعتمد على التفسير الموضوعي.

- جمعت كل ما يتعلق بالآيات الكونية الواردة في سورة الأعلى.
- عزوت الآيات إلى مواضعها في القرآن الكريم.
- خرجت الأحاديث الواردة في البحث من مصادرها.
- وثقت النصوص بعزوها إلى مصادرها.

وإنّي أسأل الله أن يجعل عملي هذا خالصًا لوجهه الكريم، وأن يتجاوز عن خطايانا وتقصيرنا.

وأسأله سبحانه أن ينفع به كاتبه وقارئه، إنه سميع قريب. وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفصل الأول: مفهوم الآيات الكونية في القرآن الكريم

المبحث الأول: المراد بالآيات الكونية.

الآيات: جمع "آية"، وهي العلامة أو الدليل. يُقال: أبان الشيء وأظهره، أي جعله علامةً ظاهرة.

لَفظ الآيةِ يُطلَقُ فِي اللُّغةِ العربيَّةِ إطلَاقَيْن، وفِي القُرآنِ العَظِيمِ إطْلَاقَيْنِ أيضًا(١).

أَمَّا إطْلَاقَاهُ في اللُّغَةِ العربيَّة:

فَالأَوَّلُ مِنهما – وهُوَ المَشهُورُ فِي كَلامِ العربِ – فهُو إطْلَاقُ الآيَةِ بمَعنَى العَلامة، وهذَا مُسْتَفِيضٌ فِي كَلامِ العَرب

وأَمَّا الثَّانِي مِنهما فهُوَ إطْلَاقُ الآيَةِ بمَعنَى الجَمَاعَة، يَقُولون: جَاءَ القَومُ بِآيَتِهم، أَيْ بِجَمَاعَتهم.

وأَمَّا إطْلَاقَاهُ فِي القُرآنِ العَظِيم: فالأَوَّلُ مِنهما: إطْلَاقُ الآيَةِ عَلَى الشَّرْعِيَّةِ الدِّينِيَّةِ، كَآيَاتِ هَذا القُرآنِ العَظِيم، ومِنه قولهُ: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ الجاثية: ٦.

وَأَمَّا الثَّانِي مِنْهُمَا وهو ما يعنينا: فَهُوَ إطْلَاقُ الآيَةِ عَلَى الآيَةِ الكَونِيَّةِ القَدَرِيَّةِ، كقَوله تَعَالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠﴾ آل عمران: ١٩٠

فالآيَة الكَوْنِيَّة القَدَرِيَّة فهِي بِمَعنَى الآيَةِ اللُّغَوية التي هي العَلامَة؛ لأَنَّ الآياتِ الكَونِيَّةَ عَلاماتٌ قَاطِعة، على أَنَّ خَالِقَها هو الرَّبُّ المَعْبُودُ وَحده." (٢)

(١) الآية لها إطلاقات كثيرة في اللغة منها المعجزة كقوله تعالى: (هذه ناقة الله لكم آية).

(٢) يراجع: مجمل اللغة (١٠٦/١) باب الهمزة والواو، لأحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرَّازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار =

الكونية: نسبة إلى "الكون"، ويعني الوجود الشامل الذي يشمل السماء والأرض وما فيهما من مخلوقات.

إذًا، الآيات الكونية لغة تعني: العلامات أو الدلائل الظاهرة في الكون التي تدلُّ على الخالقِ سبحانه وتعالى وعظمته.

الآيات الكونية هي: كل ما في الكون من مظاهر الخلق والإبداع التي تدل على وجود الله وقدرته وحكمته، وتشمل الظواهر الطبيعية كالسماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والبحار والنباتات والحيوانات والإنسان.

وتُذكر هذه الآيات في القرآن الكريم لتكون أدلة حسية وعقلية تدعو الإنسان إلى التأمل والتفكر في عظمة الخالق وإدراك حقيقة التوحيد والقدرة الإلهية المطلقة.

وهذا مصطلح مُستنبط من دراسة نصوص القرآن وسياق الحديث عن آيات الله في الكون.

مثال قرآني:

قوله تعالى﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ

=

الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م، والمعجم الوسيط (٨٠٦/٢) باب الكاف، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار)، الناشر: دار الدعوة، و"أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن " (١٨٧/٧). لمحمَّد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت – لبنان، عام النشر: ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ آل عمران: ١٩٠ – ١٩١

وقوله تعالى ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ الذاريات: ٢٠ – ٢١

المبحث الثاني: أنواع الآيات الكونية:

الآيات الكونية تنقسم إلى أنواع وفق دلالتها والغرض من الإشارة إليها، ويمكن تصنيفها إلى ما يلي:

١- آيات الخلق والإيجاد:

وهي الآيات التي تشيرُ إلى خلق الله للكون وما فيه من مخلوقات، مثل السماوات والأرض، والشمس والقمر، والجبال والبحار.

مثال ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾ آل عمران: ١٩٠

٢- آيات التسخير:

وهي ما يتعلق بتسخير الله للظواهر الكونية لخدمة الإنسان، مثل تسخير الشمس والقمر والرياح والبحار.

مثال ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ ﴾ إبراهيم: ٣٣

٣- آيات النظام والإحكام:

وتشير إلى الدقة المتناهية والنظام البديع في الكون، مثل دوران الكواكب، وتعاقب الليل والنهار، وحركة النجوم.

مثال: ﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ يس: ٤٠

٤- آيات الإحياء والإماتة:

وهي الآيات التي تدلُّ على قدرة الله على الإحياء والإماتة في الحياة الدنيا أو يوم القيامة، مثل إحياء الأرض بالمطر أو بعث الموتى.

مثـــال: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٥٠﴾ الروم: ٥٠

٥- آيات الابتلاء والتذكير:

وهي الظواهر الكونية التي تكون بمثابة ابتلاء أو تذكير للإنسان بقدرة الله، مثل الزلازل والبراكين والفيضانات.

مثال: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ٥٩﴾ الإسراء: ٥٩

٦- آيات البعث والنشور:

وهي الآيات التي تُذكر بالبعث والنشور يوم القيامة، مثل إحياء الأرض بعد موتها كدليل على قدرة الله على إعادة الخلق.

مثال: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٣٩﴾ فصلت: ٣٩

كل نوع من هذه الآيات يُبرز جانبًا من عظمة الله ودعوته للتفكر والإيمان به.

المبحث الثالث: أغراض ومقاصد الآيات الكونية في القرآن الكريم.

ذكر القرآن الكريم الآيات الكونية لتحقيق أغراض ومقاصد متعددة تهدف إلى تقوية الإيمان، وتوجيه الإنسان للتفكر والتأمل في خلق الله، وتقديم دروس أخلاقية وروحية.

من أبرز هذه الأغراض:

١- إثبات الوحدانية لله تعالى وإقامة الحجة للمنكرين.

الآيات الكونية تُظهر قدرة الله على الخلق والإبداع، مما يُثبت وجوده ووحدانيته.

قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ

فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ الروم: ٢٢

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ البقرة: ١٦٤

قال ابن عاشور: "مَوقِعُ هاتِهِ الآيةِ عَقِبَ سَابِقَتِها مَوقعُ الحُجَّةِ مِنَ الدَّعْوى، ذلكَ أَنَّ اللَّهَ تَعالى أَعْلَنَ أَنَّ الإِلَهَ إِلهٌ وَاحدٌ لَا إلهَ غَيْرُهُ وهِي قَضِيَّةٌ مِن شَأْنها أَنْ تُتَلَقَّى بِالإِنكَارِ مِن كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ فَناسبَ إِقَامةَ الحُجَّةِ لِمَنْ لا يَقْتَنِعُ فجَاءَ بِهذِهِ الدَّلَائِلِ الوَاضِحَةِ الَّتِي لَا يَسَعُ النَّاظِرَ إِلَّا التَّسلِيمُ إِليها." (١)

٢- تعزيز الإيمان بالله تعالى وزيادة اليقين للمؤمنين:

فالآيات الكونية تُظهر قدرة الله وعظمته في الخلق، مما يعمق الإيمان به ويؤكد وحدانيته.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ ﴾ آل عمران: ١٩٠.

فبعد أن تحدث في سورة آل عمران عن الإيمان بالله تعالى جاء في آخرها بهذه الآية

(١) التحرير والتنوير (٧٦/٢)، «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» لمحمَّد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ)، الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ.

قال القرطبي: " فَخَتَمَ تَعالى هَذه السُّورةَ بالأَمْرِ بالنَّظَرِ والاستِدلالِ في آيَاتِه، إِذْ لَا تصدر إلا عن حي قيوم قدير قدوس سَلَامٍ غَنِيٍّ عَنِ العَالَمِين، حَتَّى يَكُونَ إِيمَانُهم مُسْتَنِدًا إِلى اليَقِينِ لَا إِلَى التَّقْلِيد.

﴿ لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾ الذِينَ يستَعمِلون عُقُولَهُم فِي تَأَمُّلِ الدَّلَائل." (١)

٣- الدعوة إلى التفكر والتدبر:

الآيات الكونية تدعو الإنسان إلى استخدام عقله في التدبر والتفكير في خلق الكون، مما يؤدي إلى إدراك عظمة الله.

قال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ آل عمران: ١٩١

قال الرازي: "دَلائِلُ التَّوحيدِ مَحصُورَةٌ فِي قِسمَين: دَلائِلِ الآفَاقِ، ودَلائِلِ الأَنْفُسِ ولَا شَكَّ أَنَّ دَلَائِلَ الآفَاقِ أَجَلُّ وأَعظَمُ كما قَال تَعالَى: : ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ غافر: ٥٧ ولَمَّا كانَ الأَمرُ كَذلكَ لَا جَرَمَ أمرَ فِي هَذه الآيَةِ بالفِكرِ فِي خَلْقِ السموات والأَرضِ لأَنَّ دَلالَتَها أَعجَبُ وشَوَاهِدَها أعظَم، وكَيف لا نَقُولُ ذَلك ولَو أَنَّ الإِنسَانَ نَظرَ إلى ورقَةٍ صَغيرَةٍ مِن أَوراقِ شجرَة، رَأَى في تِلكَ الورَقةِ عِرْقًا واحدًا مُمتَدًّا في وَسَطِها، ثُمَّ يتشَعَّبُ مِن ذلك العِرْقِ عُرُوقٌ كَثِيرَةٌ إلى الجَانِبَيْن، ثُمَّ يتشَعَّبُ منها عُرُوقٌ دقيقَة.

(١) تفسير القرطبي (٣١٠/٤) الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

وَلَا يَزَالُ يَتَشَعَّبُ مِن كُلِّ عِرْقٍ عُرُوقٌ أُخَرُ حَتَّى تَصِيرَ فِي الدِّقَّةِ بِحَيْثُ لَا يَرَاها البَصَرُ، وعِندَ هذا يَعلَمُ أَنَّ للخَالقِ فِي تَدبِيرِ تلك الوَرَقَةِ على هَذِهِ الخِلْقَةِ حِكَمًا بَالِغَةً وأَسرَارًا عَجِيبَة، وأَنَّ اللَّهَ تعالَى أَوْدَعَ فِيهَا قُوَى جَاذِبَةً لِغِذَائِهَا مِن قَعْرِ الأَرضِ ثُمَّ إِنَّ ذَلِك الغِذَاءَ يَجرِي في تِلْك العُرُوقِ حَتَّى يَتَوَزَّع على كُلِّ جُزْءٍ مِن أَجْزَاءِ تِلْكَ الوَرَقَةِ جُزْءٌ مِنْ أَجْزَاءِ ذَلِكَ الْغِذَاءِ بِتَقْدِيرِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ، وَلَوْ أَرَادَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَعْرِفَ كَيْفِيَّةَ خِلْقَةِ تِلْكَ الوَرَقَةِ وَكَيْفِيَّةَ التَّدْبِيرِ فِي إِيجَادِهَا وَإِيدَاعِ القُوَى الْغَاذِيَةِ وَالنَّامِيَةِ فِيهَا لَعَجَزَ عَنْهُ، فَإِذَا عَرَفَ أَنَّ عَقْلَهُ قَاصِرٌ عَنِ الْوُقُوفِ عَلَى كَيْفِيَّةِ خِلْقَةِ تِلْكَ الوَرَقَةِ الصَّغِيرَةِ، فَحِينَئِذٍ يَقِيسُ تِلْكَ الورقة إلى السموات مَعَ مَا فِيهَا مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ، وإِلَى الأَرْضِ مَعَ ما فِيهَا مِنَ البِحَارِ والجِبَالِ وَالْمَعَادِنِ وَالنَّبَاتِ وَالْحَيَوَانِ، عَرَفَ أَنَّ تِلْكَ الْوَرَقَةَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى هَذِهِ الْأَشْيَاءِ كَالْعَدَمِ، فَإِذَا عَرَفَ قُصُورَ عَقْلِهِ عَنْ مَعْرِفَةِ ذَلِكَ الشَّيْءِ الْحَقِيرِ عَرَفَ أَنَّهُ لَا سَبِيلَ لَهُ الْبَتَّةَ إِلَى الِاطِّلَاعِ عَلَى عَجَائِبِ حِكْمَةِ اللَّهِ فِي خلق السموات وَالْأَرْضِ، وَإِذَا عَرَفَ بِهَذَا الْبُرْهَانِ النَّيِّرِ قُصُورَ عَقْلِهِ وَفَهْمِهِ عَنِ الْإِحَاطَةِ بِهَذَا الْمَقَامِ لَمْ يَبْقَ مَعَهُ إِلَّا الِاعْتِرَافُ بِأَنَّ الْخَالِقَ أَجَلُّ وأَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُحِيطَ بِهِ وَصْفُ الْوَاصِفِينَ وَمَعَارِفُ الْعَارِفِينَ، بَلْ يُسَلِّمُ أَنَّ كُلَّ مَا خَلَقَهُ فَفِيهِ حِكَمٌ بَالِغَةٌ وأَسْرَارٌ عَظِيمَةٌ وَإِنْ كَانَ لَا سَبِيلَ لَهُ إِلى مَعْرِفَتِها، فَعِنْدَ هَذَا يَقُولُ: سُبْحَانَك! "[1]

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾﴾ الغاشية: ١٧ – ١٨

(١) تفسير الرازي (٤٦١/٩) مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ) الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ.

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾ ق: ٦

٣- إثبات قدرة الله على البعث:

تشير الآيات الكونية إلى دلائل على قدرة الله على إحياء الموتى كما يُحيي الأرض بعد موتها.

كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٣٩﴾ فصلت: ٣٩

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: ومن حجج الله أيضا وأدلته على قدرته على نشر الموتى من بعد بلاها، وإعادتها لهيئتها كما كانت من بعد فنائها أنك يا محمد ترى الأرض دارسة غبراء، لا نبات بها ولا زرع." (١)

وقال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٥٠﴾ الروم: ٥٠

٤- بيان النعم الإلهية وتسخير الله كل ما في الكون للإنسان:

الآيات الكونية تذكّر الإنسان بنعم الله التي سُخرت له في الكون ليستفيد منها في حياته، مثل الشمس والقمر والنجوم والرياح والمطر. قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۝٣٣ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ۝٣٤﴾ إبراهيم: ٣٣ – ٣٤

(١) تفسير الطبري (٤٧٥/٢١) جامع البيان في تأويل القرآن لمحمَّد بن جرير بن يزيد بن كثير، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ) المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

وقال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢ ﴾ النحل: ١٢

٥- إدراك عظمة وجلال الله سبحانه

عند التأمل في الآيات الكونية، يُدرك الإنسان عظمة الله فيدفعه ذلك إلى شكر الله وعبادته بإخلاص. قال تعالى: ﴿ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ١٧ ﴾ الروم: ١٧

"كُلَّ مَن كَان أَكْثَرَ تَوَغُّلًا فِي بِحَارِ المَخْلُوقَاتِ كَان أَكْثَرَ عِلمًا بِجَلَالِ اللَّهِ تَعَالى وعَظَمَتِه ". (١)

(١) التحرير والتنوير (٧٨/٢).

الفصل الثاني: تفسير الآيات الكونية في سورة الأعلى

المبحث الأول: بين يدي سورة الأعلى

المطلب الأول: أسماء السورة الكريمة ووجه التسمية:

بالرجوع إلى أقوال العلماء في قضية أسماء السور هل هي توقيفية أو توفيقية؟ وتعدد أسماء السورة الواحدة، فقد تبين أن الراجح من كلامهم أن أسماء السور توقيفية، لا مجال للاجتهاد فيها، وقد أشار إلى ذلك الإمام الطبري – رحمه الله – حيث قال: " لسوَر القرآن أسماءٌ سمّاها بها رسول الله صلى الله عليه وسلم" (١)

أسماؤها التوقيفية:

١ – سورة (الأعلى):

وهذا الاسم هو الذي ذكره جمهور أهل التفسير، وغالب كتّاب المصاحف؛ أخذا من هذا الاسم المتميز في السورة، حيث لا يكاد يوجد وصفا لله سبحانه وتعالى إلا في هذه السورة؛ ولهذا خصت به. قال ابن عاشور: "وسَمَّاهَا أَكثَرُ المُفَسِّرِين وكُتَّابُ المَصَاحِفِ «سُورة الأَعلى» لِوُقُوعِ صِفَةِ الأَعْلى فِيهَا دُونَ غَيْرِها". (٢)

٢ – سورة (سبح اسم ربك الأعلى):

هَذِه السُّورَةُ وَرَدَتْ تَسْمِيَتُها في السُّنَّةِ سُورة: (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى)

فَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَن جَابِرِ بن عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «قَامَ مُعَاذٌ فَصَلَّى الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ فَطَوَّلَ فَشَكَاهُ بَعْضُ مَنْ صَلَّى خَلْفَهُ إِلَى النَّبِي ﷺ فَقَال

(١) تفسير الطبري (١/١٠٠).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/٢٧١).

النَّبِي ﷺ: «أَفَتَّانٌ أَنْتَ يَا مُعَاذُ أَيْنَ كُنْتَ عَن سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى وَالضُّحَى»[1]

وفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» عَنِ البَرَاءِ بنِ عَازِب ﷺ قَال: «مَا جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ المَدِينَةَ حَتَّى قَرَأْتُ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى» فِي سُوَرٍ مِثْلِها [2].

ورَوَى التِّرْمِذِيُّ عَن النُّعْمَانِ بنِ بَشِيرٍ ﷺ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ فِي العِيدِ وَيَوْمِ الجُمُعَةَ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى وهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ» [3]

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٦١٠٦)(٢٦/٨) كتاب الأدب، باب من لم ير إكفار من قال ذلك متأولا أو جاهلا، الجامع المسند الصحيح صحيح البخاري، لمحمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ،

وأخرجه مسلم رقم (٤٦٥)(٣٣٩/١) كتاب الصلاة، باب القراءة في العشاء، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، لمسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(٢) أخرجه البخاري رقم (٤٩٤١)(١٦٨/٦) كتاب تفسير القرآن، باب {لتركبن طبقا عن طبق} [الانشقاق: ١٩].

(٣) رواه الترمذي في سننه (٥٣٣) (٤١٣/٢)، بَابُ الْقِرَاءَةِ فِي الْعِيدَيْنِ. وقال: هذا حديث حسن صحيح. لمحمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (جـ ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ ٤،٥)، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة الثانية ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م. وكذا رواه مسلم رقم (٨٧٨) (٥٩٨/٢)، كتاب الجمعة، باب ما يقرأ في صلاة الجمعة.

اسمها الاجتهادي:

سورة (سَبِّحْ):

سَمَّاهَا ابن عباس – رضي الله عنهما – «سَبِّحْ».

ذكر السيوطي في الدر المنثور عَن ابْن عَبَّاس ﷺ قَالَ: نزلت سُورَة {سبح} بِمَكَّة[١]. فَهَذَا ظَاهِرٌ في أَنَّه أَرَاد التَّسْمِيَة؛ لأَنَّه لم يأتِ بالجُملَةِ القُرآنِيَّةِ كَاملة، وكَذَلِكَ سَمَّاهَا البقاعي في نظم الدُّرر[٢] وابنُ كَثِير[٣] بهذا الاسم؛ لأَنَّهَا اخْتُصَّتْ بالافتِتاحِ بِكَلِمَةِ «سَبِّحْ» بصيغَةِ الأَمر.

المطلب الثاني: كلمها وحروفها وعدد آياتها واختلاف القراء:

" كَلِمُها اثنتان وسبعون كلمة، كَكَلِمِ العلق، وحروفها مئتان وواحد وسبعون حرفًا، وهي تسع عشرة آية في جميع العدد ليس فيها اختلاف". [٤]

---

(١) الدر المنثور (٨/ ٤٧٩)، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، الناشر: دار الفكر – بيروت.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٣٨٧/٢١) لإبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة

(٣) تفسير ابن كثير (٣٧٧/٨) تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م

(٤) البيان في عد آي القرآن (٢٧١/١)، لعثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الداني (المتوفى: ٤٤٤هـ)

ت: غانم قدوري الحمد، الناشر: مركز المخطوطات والتراث – الكويت، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ– ١٩٩٤م.

المطلب الثالث: فضل السورة، واستعمال النبي صلى الله عليه وسلم **لها:**

أولا فضل السورة: أنها من المُفصل الذي أوتيه النبي صلى الله عليه وسلم نافلة؛ ففضِّل به على سائر الأنبياء، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحب هذه السورة.

عن علي ﷺ قال: " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب هذه السورة: سبح اسم ربك الأعلى "[1]

هذا الحديث ضعيف، ولكن يشهد له احتفاء النبي صلى الله عليه وسلم لها في استعماله لها في الصلاة، فكان يصلي بها في جماعة يوميا: ظهر وعصر ووتر، وأسبوعيا: في الجمعة، وسنويا: في العيدين، وفي الطوارئ: في الاستسقاء، هذا ما استعمله النبي صلى الله عليه وسلم ثم أوصى الصحابةَ باستعمالها في الصلاة، فالصلاةُ أعلى حالات العبودية.

الأحاديث التي وردت في استعمال النبي صلى الله عليه وسلم لها منها:

عن النعمان بن بشير ﷺ قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في العيدين، وفي الجمعة بسبح اسم ربك الأعلى، وهل أتاك حديث الغاشية»، قال: «وإذا اجتمع العيد والجمعة، في يوم واحد، يقرأ بهما أيضا في الصلاتين».[2]

عن جابر ﷺ أنه قال: صلى معاذ بن جبل الأنصاري ﷺ لأصحابه العشاء؛ فطوَّل عليهم فانصرف رجلٌ منا فصلى، فأُخبر معاذٌ عنه فقال: إنه

---

(١) ضعيف، رواه أحمد في المسند (٧٤٢) (١٤٢/٢)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م.

(٢) مسلم (٨٧٨) (٥٩٨/٢)، كتاب الجمعة، باب ما يقرأ في صلاة الجمعة.

منافق، فلما بلغ ذلك الرجلَ دخل على رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ما قال معاذ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «أتريد أن تكون فتانا يا معاذ؟ إذا أممتَ الناس فاقرأ بالشمس وضحاها، وسبح اسم ربك الأعلى، واقرأ باسم ربك، والليل إذا يغشى».(١)

عن جابر بن سمرة ﷺ أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في الظهر بـ سبح اسم ربك الأعلى، وفي الصبح بأطول من ذلك. (٢)

عن أبي بن كعب ﷺ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم " كان يوتر بسبح اسم ربك الأعلى وقل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد " (٣)

عن إياس بن عامر، قال: سمعت عقبة بن عامر الجهني ﷺ يقول: لما نزلت {فسبح باسم ربك العظيم}، قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: " اجعلوها في ركوعكم "، فلما نزلت {سبح اسم ربك الأعلى} قال: " اجعلوها في سجودكم "(٤)

عن العرباض بن سارية ﷺ أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا ينام حتى يقرأ المُسبِّحات، ويقول: فيها آية خير من ألف آية. (٥)

المطلب الرابع: حول النزول:

أولا: مرحلة النزول

الجمهور على أن السورة مكية، نزلت قبل الهجرة، والدليل عليه حديث البراء ﷺ قال: "أول من قدم علينا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم

(١) مسلم (٤٦٥) (٣٤٠/١). كتاب الصلاة، باب القراءة في العشاء.
(٢) مسلم (٤٦٠) (٣٣٨/١). كتاب الصلاة، باب القراءة في الصبح.
(٣) رواه أحمد (٢١١٤١) (٧٨/٣٥)، وإسناده صحيح.
(٤) رواه أحمد (١٧٤١٤) (٦٣٠/٢٨)، إسناده محتمل للتحسين.
(٥) رواه الترمذي في سننه (٣٤٠٦) (٤٧٥/٥) وقال هذا حديث حسن غريب.

مصعب بن عمير وابن أم مكتوم، فجعلا يقرئاننا القرآن، ثم جاء عمار وبلال وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين، ثم جاء النبي صلى الله عليه وسلم، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحَهم به، حتى رأيتُ الولائد والصبيان يقولون: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جاء فما جاء، حتى قرأت: {سبح اسم ربك الأعلى} في سور مثلها " (١)

أي: فما جاء حتى تعلمتها مع سور أخرى مثلها في المقدار من أوساط المُفصل، وهذا يدلُّ على أن سورة الأعلى نزلت بمكة، ثم إن الطابع العام للسورة يدل على مكيتها، والمعاني فيها تشهد لكونها مكية.

ثانيا: سبب النزول: لم يرد . فيما يبدو لي . سببُ نزولٍ صحيحٍ فيها.

ثالثا: ترتيبها في المصحف، وترتيبها في النزول:

جاءت سورة الأعلى في المصحف (٨٧) من حيث الترتيب بعد سورة الطارق وقبل سورة الغاشية.

أما في النزول فكان نزولها مبكرًا، نزلت السورة الثامنة، وقيل السابعة، " فهي معدودة ثامنة في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد، نزلت بعد سورة التكوير وقبل سورة الليل. وروي عن ابن عباس وعكرمة والحسن أنها سابعة، قالوا: أول ما نزل من القرآن: اقرأ باسم ربك، ثم ن، ثم المزمل، ثم المدثر، ثم تبت، ثم إذا الشمس كورت، ثم سبح اسم ربك. وأما جابر بن زيد فعدَّ الفاتحة بعد المدثر ثم عدَّ البقية، فهي عنده ثامنة، فهي من أوائل السور، وقوله تعالى: سنقرئك فلا تنسى ينادي على ذلك" (٢).

---

(١) البخاري (٤٩٤١) (١٦٨/٦)، كتاب تفسير القرآن، باب {لتركبن طبقا عن طبق} [الانشقاق: ١٩].

(٢) التحرير والتنوير (٢٧٢/٣٠).

المطلب الخامس: التعرف على مقصد السورة وموضوعها الرئيس:

السورة لها موضوع واحد أو موضوعات بينها صلة، ويمكن أن يُعرف مقصد السورة بأنه مغزى السورة الذي ترجع إليه معاني السورة ومضمونها، ويمثل روحها الذي يسري في جميع أجزائها، فعندما يُنظر إلى المقصود يُوجد مركوزًا في كل موضوع من موضوعات السورة، ويوجد بيِّنًا واضحا يتراءى عندما يدقق في النظر، ويتأمل تأملا جيدا، هذه السورة مكية قصيرة الفواصل، لها سمات السور المكية، ويكاد سياق السورة أن يكون كله وحدةً متماسكة، ذات محور واحد، تشد إليه خيوطها جميعا.

فمن سمات القرآن المكي بناء الإنسان بتقرير أصول العقائد الإيمانية، بدعوة الخلق إلى توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة، والإيمان باليوم الآخر وما يتبع ذلك من الجزاء والجنة والنار، وتقرير رسالة النبي صلى الله عليه وسلم والرسل من قبله، والإيمان بالملائكة عليهم السلام.

"وهذه السورة اشتملت على تنزيه الله تعالى والإشارة إلى وحدانيته لانفراده بخلق الإنسان وخلق ما في الأرض مما فيه بقاؤه، وعلى تأييد النبي صلى الله عليه وسلم وتثبيته على تلقي الوحي، وأن الله معطيه شريعة سمحة وكتابا يتذكر به أهل النفوس الزكية الذين يخشون ربهم، ويعرض عنهم أهل الشقاوة الذين يؤثرون الحياة الدنيا ولا يعبأون بالحياة الأبدية، وأن ما أوحي إليه يصدقه ما في كتب الرسل من قبله وذلك كله تهوين لما يلقاه من إعراض المشركين".[١]

جاءت السورة بكل هذه الأغراض والمقاصد وقصدت إلى تحقيق أعلى مقام على الإطلاق في كل هذه المقاصد.

(١) التحرير والتنوير (٢٧٢/٣٠).

المطلب السادس: مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها:

أولا: المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها:

قال أبو حيان: " ولما ذكر في الطارق ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ ﴾ الطارق: ٥، كأن قائلا قال: من خلقه على هذا المثال؟ فقيل: سبح اسم ربك الأعلى. وأيضا لما قال: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ ﴾ الطارق: ١٣، قيل: هو سنقرئك، أي ذلك القول الفصل ".(١)

قال السيوطي: "وفي سورة الطارق ذكر خلق النبات والإنسان في قوله: ﴿ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ۝١٢ ﴾ الطارق: ١٢، وقوله: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ ﴾ الطارق: ٥، إلى ﴿ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ ﴾ الطارق: ٨، وذكره في هذه السورة في قوله: ﴿ خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ الأعلى: ٢، وقوله في النبات: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥ ﴾ الأعلى: ٤ – ٥"، وقصة النبات في هذه السورة أبسط، كما أن قصة الإنسان هناك أبسط، نعم، ما في هذه السورة أعم من جهة شموله للإنسان وسائر المخلوقات".(٢)

" وختمت السورة بقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ۝١٧ ﴾ الطارق: ١٥ – ١٧، وفى هذا – كما عرفنا – تهديد للمشركين، وتطمين لقلب النبي، وحماية له من هذا الكيد الذي يكاد له، فناسب أن تجيء بعد ذلك سورة «الأعلى» مبتدئة بقوله تعالى: ﴿ سَبِّحِ

(١) البحر المحيط (٤٥٥/١٠)، لأبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ)، ت: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر – بيروت، الطبعة: ١٤٢٠ هـ.

(٢) أسرار ترتيب القرآن ص(١٥٧) لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، الناشر: دار الفضيلة للنشر والتوزيع.

﴿ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١﴾ الأعلى: ١، ففى هذا الاستفتاح دعوة إلى تمجيد الله وتعظيمه، والتسبيح بحمده، على أن أخذ الظالمين بظلمهم، وأبطل كيدهم...". (١)

ثانيا: المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما بعدها:

" لما ذكر في الأعلى ﴿فَذَكِّرۡ﴾ الأعلى: ٩، وذكر النار والآخرة، قال: هل أتاك حديث الغاشية. والغاشية: الداهية التي تغشى الناس بشدائدها يوم القيامة" (٢).

" ولما أشار سبحانه في سورة الأعلى بقوله: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ۝١١ ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ۝١٢﴾ الأعلى: ١٠ – ١٢، إلى قوله: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ۝١٧﴾ الأعلى: ١٧ إلى المؤمن والكافر، والنار والجنة إجمالًا، فصَّل ذلك في هذه السورة، فبسط صفة النار والجنة مستندة إلى أهل كل منهما على نمط ما هنالك؛ ولذا قال هنا﴿عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ۝٣﴾ً الغاشية: ٣، في مقابل:

﴿ٱلۡأَشۡقَى﴾ الأعلى: ١١ هناك، وقال هنا: ﴿تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾ الغاشية: ٤، إلى ﴿لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ ۝٧﴾ً الغاشية: ٧، في مقابلة ﴿يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ۝١٢﴾ الأعلى: ١٢، هناك، ولما قال هناك في الآخرة: ﴿خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ۝١٧﴾ الأعلى: ١٧ بسط هنا صفةً أكثر من صفة النار؛ تحقيقًا لمعنى الخيرية".(٣)

" وختمت سورة «الأعلى» بالحديث عن الآخرة، وعن أنها الحياة الخالدة الباقية، التي تستحق أن يعمل الإنسان لها، ويؤثرها على الدنيا، إيثار الحقّ على الباطل، والعظيم على الحقير، والباقي على الفاني.. ولكن حب الدنيا قد غلب

(١) التفسر القرآني للقرآن (١٥٢٦/١٦) عبد الكريم يونس الخطيب (المتوفى: بعد ١٣٩٠هـ)، الناشر: دار الفكر العربي – القاهرة.

(٢) البحر المحيط (٤٦١/١٠).

(٣) أسرار ترتيب القرآن ص(١٥٧).

على أكثر الناس، فصرفوا همهم كله إلى الدنيا، ولم يعطوا الحياة الآخرة شيئا من وجودهم، فجاءوا إلى يوم القيامة مفلسين معدمين، ليس فى أيديهم زاد لها؛ بل كل ما يحملون هو أوزار وآثام، وضلالات.. فكان الحديث عن الغاشية، وهى القيامة، وعن أهوالها، تذكيرا للناس بها، وتنبيها لهم إلى ما يلقى المجرمون فيها من عذاب ونكال" (١).

المبحث الثاني: الآيات الكونية ودلالتها في سورة الأعلى

تتناول سورة الأعلى مجموعة من الآيات الكونية التي تتحدث عن عظمة الخالق وإبداعه في خلق الكون وتدبيره. يمكن تحليل هذه الآيات من جوانب متعددة تتصل بالتوحيد والخلق والإعجاز الكوني، وتحتوي على العديد من الدلالات الكونية التي تدلُّ على عظمة الله وقدرته في الخلق والتدبير.

حتى يتثنى لنا إبراز ذلك سأقسمها إلى مطالب كالآتي:

المطلب الأول: التسبيح ودلالته الكونية. "سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى"

المطلب الثاني: الدلاله الكونية للخلق والتسوية. "الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى"

المطلب الثالث: التقدير والهداية الإلهية في الكون. "وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى"

المطلب الرابع: دورة النبات ودلالتها الكونية. "وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى"

المطلب الخامس: التحول البيئي ودورة الحياة. "فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى"

(١) التفسير القرآني للقرآن (١٥٣٦/١٦).

المطلب الأول: التسبيح ودلالته الكونية. "سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى"

"سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى":

تحتوي هذه الآية ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ الأعلى: ١: على معانٍ كونية تتصل بتوحيد الله وتنزيهه عن كل نقص، والإشارة بعدها إلى آيات الخلق والإبداع في الكون.

قال الماتريدي: " التسبيح: وصف الرب ﷻ بالرفعة والعظمة والجلال، والتعالي عن الأشباه والأمثال، وعما وصفه الملحدون، والتسبيح: تنزيه الرب وتبرئته عن جميع معاني الخلق ".(١)

فالتسبيح هو تعظيم الله وتنزيهه عن كل نقص، وهو عبادة عظيمة ترتبط بعظمة الخالق وبالكون الذي يدل على وحدانيته. وقد جاء ذكر التسبيح في القرآن الكريم في سياقات متعددة، ليوضح أنه ليس فقط عبادة قولية يقوم بها الإنسان؛ بل هو لغة كونية يشارك فيها كل المخلوقات، فالكائنات الحية والجمادات تسبح، قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝٤٤﴾ الإسراء: ٤٤، والملائكة تسبح، قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾ الأنبياء: ٢٠، والإنسان يسبح، قال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٩٦﴾ الواقعة: ٩٦.

فتسبيح السماوات والأرض والكائنات والجمادات دليل على انسجام الكون في عبادة الله، وتسبيح الإنسان عبادة تُظهر خضوعه لله، وانسجامه مع الكون.

---

(١) تأويلات أهل السنة (١٣٦/٥)، تفسير الماتريدي، لأبي منصور الماتريدي (ت: ٣٣٣هـ)، ت: د. مجدي باسلوم، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م.

أولا: التفسير:

"سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى":

" سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى: نزّه اسم ربك عما لا يليق به من صفات النقص في ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله وأحكامه، واذكره دائما على وجه التعظيم، فإنه الأسمى والأعلى من كل شيء، والعالي والأعلى والأجل والأعظم من كل ما يصفه به الواصفون، كما يوصف بالكبير والأكبر ". (١)

فهذه الآية تدعو الإنسان إلى النظر في الكون من حوله لتقدير عظمة الله الذي أوجد هذا الكون بنظام دقيق، فكل شيء يشير إلى كمال قدرته وعلمه.

- دلالة العناية الإلهية في تدبير الكون

فهي دعوة للتسبيح تعكس عظمة الله في تدبير شؤون الكون، والتأكيد على أن كل شيء في الوجود خاضع لإرادته، بدءًا من الذَّرَّة وحتى الكواكب إشارة إلى أن الكون يسبح لله ويشهد بعظمته، وهو مدعو للتأمل في تلك الآيات الكونية.

يدل اسمه "الأعلى" على علو الله في القدرة والسلطان، وأن كل ما في الكون يدل على عظمته.

قال الرازي: " ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ ﴾ " الأعلى: ٢ – ٣، فاعلم أنه لما أمر بالتسبيح، فكأن سائلا قال: الاشتغال بالتسبيح إنما يكون بعد المعرفة، فما الدليل على وجود الرب؟ فقال: الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى، واعلم أن الاستدلال بالخلق والهداية هي الطريقة المعتمدة عند أكابر الأنبياء – عليهم السلام – والدليل عليه ما حكى الله تعالى عن إبراهيم أنه قال: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ ۝٧٨ ﴾ الشعراء: ٧٨، وحكى عن فرعون أنه لما قال لموسى

(١) التفسير المنير (١٨٨/٣٠). التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، لِوَهْبة بن مصطفى الزُّحيلي، الناشر: دار الفكر المعاصر – دمشق، الطبعة: الثانية ١٤١٨هـ.

وهارون – عليهما السلام – ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ طه: ٤٩ ؟ قال موسى ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ طه: ٥٠، وأما محمد ﷺ فإنه تعالى أول ما أنزل عليه هو قوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾ العلق: ١ – ٢، هذا إشارة إلى الخلق، ثم قال ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾﴾ العلق: ٣ – ٤، وهذا إشارة إلى الهداية، ثم إنه تعالى أعاد ذكر تلك الحجة في هذه السورة، فقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ الأعلى: ٢ – ٣، وإنما وقع الاستدلال بهذه الطريقة كثيرا لما ذكرنا أن العجائب والغرائب في هذه الطريقة أكثر، ومشاهدة الإنسان لها، واطلاعه عليها أتم، فلا جرم كانت أقوى في الدلالة" (١).

ثانيا: الدلالة الكونية للتسبيح:

١– التسبيح يدل على وحدانية الله

فتسبيح كل مخلوقات الله يعكس أن الخالق واحد، وأن كل شيء يدور في فلك طاعته.

قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ الإسراء: ٤٤.

٢– التسبيح يدل على انسجام الكون

قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ﴾ الإسراء: ٤٤.

٣– التسبيح يدل على عظمة الخالق وقدرته

فتسبيح المخلوقات يشير إلى قدرة الله في خلق هذا النظام الكوني البديع.

(١) مفاتيح الغيب (١٢٨/٣١).

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ٣﴾ الأنعام: ٣.

٤- التسبيح يدل على أنه جزء من العبادة الكونية

فكل ما في الكون يؤدي دوره في التسبيح، مما يربط الإنسان بمحيطه الكوني وانسجامه معه.

وإذا تتبعنا أكثر ورود التسبيح في القرآن نجد أن الله ﷻ سبح نفسه في كتابه العزيز عن كل ما نسبه إليه الكافرون المفترون، وعن كل ما قد يظنه المبطلون من نقص أو عجز أو سوء، ومجَّد ﷻ نفسَه ببيان بعض مظاهر قدرته وعظمته في الكون والخلق، وبيان بعض أسمائه الحسنى وصفاته العلى.

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ يس: ٣٦

قال القرطبي: "نَزَّهَ نَفْسَهُ سُبحَانَه عن قَولِ الكُفَّارِ، إِذْ عَبَدُوا غَيْرَهُ مَع ما رَأوهُ مِن نِعَمِهِ وآثَارِ قُدْرتِه. وفِيهِ تَقْدِيرُ الأَمر، أَي سَبِّحُوهُ ونَزِّهُوهُ عَمَّا لا يَلِيقُ به. وقِيل: فِيه مَعنى التَّعَجُّب، أَي عَجَبًا لهَؤُلَاء فِي كُفْرِهم مَع ما يُشَاهِدُونَهُ مِن هذه الآيات، ومَنْ تعجب من شيء قَال: سُبحانَ اللَّه !". (١)

قال الرازي: "ولما تقررت الوحدانية والإعادة وأنكروها وقالوا بأن غير الله آلهة، قال تعالى وتنزه عن الشريك: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يس: ٨٣

الذي بيده ملكوت كل شيء، وكل شيء ملكه فكيف يكون المملوك للمالك شريكا؟ وقالوا بأن الإعادة لا تكون، فقال: وإليه ترجعون ردًّا عليهم في الأمرين، وقد ذكرنا ما يتعلق بالنحو في قوله: سبحان، أي سبحوا تسبيح الذي أو سبح من

(١) ينظر: " تفسير القرطبي "(٢٦/١٥).

في السموات والأرض تسبيح الذي، فسبحان عَلَمٌ للتسبيح، والتسبيح هو التنزيه، والملكوت مبالغة في المُلك كالرحموت والرهبوت".[١]

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ الزمر: ٦٧

قال أبو السعود: "ما قدرُوا عظمتَه تعالى في أنفسهم حقَّ عظمتِه حيثُ جعلُوا له شريكا ووصفُوه بما لا يليق بشئونه الجليلةِ ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ يونس ١٨

ما أبعدَ وما أعلى مَن هذه قدرتُه وعظمتُه عن إشراكِهم أو عمَّا يُشركونه من الشُّركاء". [٢]

ثالثا: مظاهر الإعجاز العلمي للتسبيح في القرآن الكريم تتجلى في عدة جوانب مدهشة، ومن أبرزها:

١- تسبيح جميع المخلوقات:

قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ الإسراء: ٤٤.

وهذا يشير إلى أن كل الكائنات، الحية وغير الحية، تسبّح الله بطريقة لا ندركها، وقد بدأ العلماء يكتشفون أن الذرات والجزيئات تصدر ذبذبات منتظمة أشبه بالتسبيح.

---

(١) ينظر: " تفسير الرازي "(٣١١/٢٦).

(٢) ينظر: " تفسير أبي السعود "(٢٦٢/٧)، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: لأبي السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: ٩٨٢هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

" فقد لاحظ العلماء أن بعض النباتات تصدر ذبذبات صوتية في المجال الذي يسمعه الإنسان، أي ضمن ترددات من ٢٠ إلى ٢٠٠٠٠ ذبذبة في الثانية، ولكن الإشارات الصوتية التي تطلقها هذه النباتات ضعيفة جدا، ولا يمكن سماعها إلا بعد تقويتها وتكبيرها آلاف المرات. فكل شيء في الوجود يتكلم ويصدر ترددات صوتية، فالنباتات والأشجار لها أصوات محددة وتتأثر بالأصوات أيضاً، وهذا ما تكشفه الأبحاث الجديدة في علم النبات. ثم بدأ العلماء يلاحظون أن بعض النجوم تصدر أصواتًا مسموعة..." (١)

٢- تسبيح الكائنات الحية:

الطيور والحيوانات تصدر أصواتًا منتظمة ومتكررة، وقد يكون هذا التسبيح بلغتها. قال الله تعالى عن الطير: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ النور: ٤١.

٣- إعجاز في التأثير النفسي للتسبيح: الدراسات النفسية الحديثة أثبتت أن تكرار الألفاظ المريحة مثل "سبحان الله" يؤثر إيجابيًا على الجهاز العصبي ويقلل من التوتر والقلق، ما يعزز الإحساس بالسكينة

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ الحجر: ٩٧ – ٩٨.

(١) ينظر: مقال " صور من تسبيح الكائنات لله " للدكتور: محمد محمد السقا عيد، بتاريخ: الثلاثاء أغسطس ٢٠٢١م نقلا عن موقع: موقع إعجاز القرآن والسنة.

رابعا: الأثر الروحي والوجداني للتسبيح على الإنسان وعلاقته بالكون

إذا أحسن المسلمُ تفهمَ التسبيحِ وفضلَه جيدا، فإنه يجدُ لذلك أثرًا في قلبه، ويفيض ذلك الأثر على وجدانه؛ بل وكل كيانه.

١- التسبيح يشعر الإنسان بالاتصال بالله ويقوي العلاقة بين الإنسان وربه، ويجعله يعيش في انسجام مع الكون.

٢- التسبيح يشعرالإنسان بالأمان ويتخلص من نفسه الأمارة ووساوس الشيطان قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ الحجر:(٩٧ – ٩٩)

٣- ويشعر الإنسان بالأمل والتفاؤل والطمأنينة والأمان، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ الرعد: ٢٨

٤- يشعر بالندم على غفلته عن التسبيح الذي كان سيقتصر له طريق النجاة، ويوفر له كثيرا من الوقت والجهد.

٥- يشعر بالراحة النفسية، ويعالج نفسَه من أمراضٍ روحيةٍ عجز عنها الأطباء، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الأنبياء: ٨٧

٦- يشعر بالرضا، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾ طه: ١٣٠

٧- يشعر بالحياء من نفسه عندما يجد كل ما في الكون يسبح، فيبادر بأحسن تسبيح.

لمطلب الثاني: الدلالة الكونية للخلق والتسوية "الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى"

يتجلى في القرآن الكريم عظمة الله ﷻ من خلال تصويره لخلق الإنسان وتكامله في أحسن تقويم، كما يعكس مفهومُ التسوية في الإنسان إبداعَ الخالق ودِقة خلقه، إذ يتمثل هذا المفهوم في توازن الجسد والروح، وارتباط الإنسان بالكون المحيط به كنظامٍ متكامل.

أولا: التفسير:

" الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى أي الذي خلق الكائنات جميعها، ومنها الإنسان، وسوّى كل مخلوق في أحسن الهيئات، فعدل قامته، وناسب بين أجزائه، وجعلها متناسقةً محكمةً غير متفاوتة ولا مضطربة، للدلالة على إتقانها من إلهٍ حكيمٍ مدبرٍ عالم". (١)

قوله {فسوى} يعني سوَّى ما خلقه على أحسن صورة، وعلى الصورة المتناسبة – فالإنسان مثلا – قال الله تعالى في سورة الانفطار: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ ٧ - ٨. ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ التين: ٤. ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨﴾ ٣٨

خلق: يشير إلى الإيجاد من العدم، فالله هو الخالق الذي أوجد الكون وما فيه.

فسوّى: أي أتمَّ الخلق على أكملِ وجهٍ وأحسن هيئة بتوازنٍ وإتقان، والتسوية هي المقصودة من الخلق.

قال ابن عاشور: "وجُمْلَة: الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى اشْتَمَلَتْ عَلَى وَصْفَيْنِ: وَصْفِ الْخَلْقِ ووَصْفِ تَسْوِيَةِ الْخَلْقِ، وَحُذِفَ مَفْعُولُ خَلَقَ فَيَجُوزُ أَنْ يُقَدَّرَ عَامًّا، وَهُوَ مَا قَدَّرَهُ جُمْهُورُ الْمُفَسِّرِين، وَرُوِيَ عَن عَطَاء، وهُو شَأْنُ حَذْفِ المَفْعُولِ إِذَا لم

(١) التفسير المنير (١٨٩/٣٠).

يَدُلَّ عَلَيه دَلِيلٌ، أَيْ خَلَقَ كُلَّ مَخْلُوقٍ فَيَكُونُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ قَوْلِ مُوسَى: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ طه: ٥٠، وَيَجُوزُ أَنْ يُقَدَّرَ خَاصًّا، أَيْ خَلَقَ الإِنسَانَ كَمَا قَدَّرَهُ الزَّجَّاجُ(١)، أَوْ خَلَقَ آدَمَ كَمَا رُوِيَ عَنِ الضَّحَّاكِ، أَي بِقَرِينَةِ قَرْنِ فِعْلِ «خَلَقَ» بِفِعْلِ «سَوَّى» قَالَ تَعَالَى: فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي [الْحجر: ٢٩] الْآيَةَ.

وَعَطَفَ جُمْلَةَ: فَسَوَّى بِالْفَاءِ دُونَ الوَاوِ للإِشَارَةِ إِلى أَنَّ مَضْمُونَها هو المَقْصُودُ مِن الصِّلَةِ وأَنَّ ما قبلهُ تَوطِئَةٌ لَه". (٢)

معنى تسوية الإنسان

أولا: اللغة:

التسوية تعني الاستقامة والاعتدال، والإتمام والإكمال.

قال ابنُ فارس: "السِّينُ والوَاوُ واليَاءُ أَصْلٌ يَدُلُّ عَلى اسْتِقَامَةٍ واعْتِدَالٍ بينَ شَيْئَيْنِ". (٣)

قَالَ أَبو الهَيْثَمِ: "السَّوِيُّ فَعيلٌ فِي مَعنى مُفْتَعِلٍ أَي مُسْتَوٍ، قَال: والمُستَوِي التامُّ في كَلَامِ العَرَبِ الذي قَد بَلَغَ الْغَايَةَ فِي شبابِه وتمامِ خَلْقِه وعقلِه. واستَوَى الرَّجلُ إِذَا انْتَهَى شَبابه". (٤)

(١) قال الزجاج: خلق الإنسان مستوياً، أشهده على نفسه بأنه ربُّه. وخلقه على الفطرة. ينظر: معاني القرآن وإعرابه (٣١٥/٥).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٢٧٥/٣٠).

(٣) مقاييس اللغة (١١٢/٣) باب السين والواو.

(٤) لسان العرب (٤١٥/١٤) فصل السين المهملة. لمحمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ)، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤هـ.

ثانيا: الاصطلاح:

قال ابن عاشور: "والتَّسْوِيَةُ: جَعْلُ الشَّيءِ سَوَاءً، أَي مُعَدَّلًا مُقَوَّمًا، وقال: جَعْلُ الشَّيءِ سَوِيًّا، أَي قَوِيمًا سَلِيمًا، وقال: (سَوَّاهُنَّ) أَي خَلَقَهُنَّ فِي استِقَامَةٍ، واسْتِقَامَةُ الْخَلْقِ هِي انتِظَامُهُ عَلى وَجْهٍ لا خَلَلَ فِيه ولَا ثَلْمَ".(١)

استخدام التسوية والسواء في السياق القرآني

من ناحية اللغة هناك اتحاد، وزيادة المبنى في الاستواء تَشِي بزيادةٍ في المعنى المتحد بينهما، فالتسوية وردت لتعكس الكمالَ بعد التكوين، أما السواء فقد ورد ليعكسَ بدايةَ التكوين، **فالاستواء** هو النضجُ والاكتمالُ، وهذا قدرٌ زائدٌ على السواء، فقد قال الله عن موسى ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤﴾ القصص: ١٤

أي تمَّ واستقر، وقال عن جبريل ﴿ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ٦﴾ النجم: ٦، وقال في وصف الصحابة – وقيل وصف الرسول صلى الله عليه وسلم – ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ٢٩﴾ الفتح: ٢٩

ويستعمل الاستواءُ في التعبير عن الاستقرار والعلو والارتفاع على حالةٍ من السواء، كقوله: ﴿فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٨﴾ المؤمنون:٨٢

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٣٦٨/٢٩)، (١٧٥/٣٠)، (٣٨٥/١).

وقوله: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ الزخرف٣٢، أي علوتم،

وقوله: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ هود: ٤٤.

وفي **السواء** قال: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾ السجدة: ٩

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ الحجر: ٩٢

وقال: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾ الكهف: ٧٣

وقال: ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾﴾ القيامة: ٨٣

وقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾﴾ الانفطار: ٧. [1]

ثانيا: الدلالة الكونية لتسوية الإنسان:

١- تشير هذه الآية إلى أنَّ الكونَ مخلوقٌ وفق نظامٍ دقيق ومتوازن؛ فالأرضُ والسماء والكواكب والمخلوقات كلها في توازنٍ بديعٍ يدلُّ على قدرة الله الفائقة.

والإنسان جزء من نظامٍ كوني متكامل، قال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ الذاريات: ٢١.

والإنسان نموذج مُصغَّر للكون، وخلقُ الأكوان تجري عليه نفسُ سنن خلقِ الإنسان، فهناك مرحلة الخلق، وهناك مرحلة التسوية.

* **فالسماء** ورد أنَّ الله خلقها، وورد أن الله سواها، قال تعالى: : ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ ص: ٢٧

(١) يراجع: تأويلات أهل السنة (٢٦٨/٧)

وقال ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ البقرة: ٢٩

* **والأرض** ورد أنه خلقها، وورد أنه (دحاها وطحاها وأصلحها) وكل ذلك تسوية وبناء؛ قال تعالى ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾ النازعات٣٠ - ٣٣، وقال: ﴿ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ ﴾ الشمس: ٦، وقال: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ الأعراف:٥٦.

* **والإنسان** ورد أن الله خلقه، وورد أنه سواه، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ الحجر: ٨٢ – ٩٢.

وقال: ﴿ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ ﴾ الكهف: ٣٧

وقال: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ السجدة: ٧ - ٩،

وقال: ﴿ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ ﴾ القيامة: ٨٣، وقال: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ ﴾ ٧، وقال: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ ﴾الأعلى: ٢ (1)

(١) يراجع: قضايا جدلية في الاضطرابات النفسية ص (١٣٦) وما بعدها. للدكتور: شريف طه يونس.

٢- تشير هذه الآية إلى الإبداع الإلهي في الخلق، وقدرة الله المُطلقة في خلق الكون بانتظام وتوازن، والإتقان والإحكام في الخلق، من المخلوقات الحية وغير الحية، مما يعكسُ حكمته وإبداعه في خلقِ كلِّ شيء.

٣- تشير الآية إلى التوازن بين الجسد والروح، فتسوية الإنسان تعكسُ التوازن بين البُعدين: المادي المُشاهد (جسد الطين)، وهو ما يمثلُ إنسانَ الأبدان، والروحي الغائب (النفخة الإلهية)، وهي ما تمثلُ إنسانَ الإيمان.

٤- تشير الآية إلى الإعجاز العلمي في خلق الإنسان

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ المؤمنون: ١٤.

التطابق بين المراحل القرآنية لتكوين الإنسان واكتشافات علم الأجِنَّة يمثل دليلًا على الإعجاز العلمي.

٥- التفكر في الأنفس من أقوى البراهين والدلائل على وجود الله، لِمَا فيه من مباشرة النعم، قال تعالى: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ الذاريات: ٢١

قال الرازي: "وفي نُفُوسِكُمُ التِي بِها حَيَاتُكُم آيَاتٌ، وقَولهُ: ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ بالاستِفهَامِ إشَارَةٌ إلَى ظُهُورِها".(١)

أثر هذه التسوية على دور الإنسان الكوني

١- الإنسان خليفةٌ في الأرض

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ البقرة: ٣٠.

فالتسوية جعلت الإنسان مؤهلًا لتحمل مسؤولية الإعمار.

(١) تفسير الرازي (١٧٢/٢٨).

٢- التكليف والمسؤولية

التسوية الجسدية والروحية أهَّلت الإنسانَ لتحمُّل الأمانة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾ الأحزاب: ٧٢.

٣- التفكر في خلق الإنسان والكون

قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ فصلت: ٥٣.

التسوية تتيحُ للإنسان التفكر في عظمةِ الخالق ودورِه في الكون.

فبيَّن القرآن الكريم أنَّ تسوية الإنسان تمثل إبداعًا إلهيًا يعكس التكامل بين الروح والجسد، وهو ما يسمى بالنفس، كما أن دلالاته الكونية تُبرز ارتباطَ الإنسان بالنظام الكوني العام، مما يؤهله للقيام بدوره كخليفةٍ ومستخلَف في الأرض.

ثالثا: مظاهر الإعجاز العلمي للتسوية في القرآن الكريم:

تظهر في دقةِ التصوير والتنظيم المتناسق في مراحل خلق الإنسان والكون، ومن أبرز هذه المظاهر:

١- الإعجاز في خلق الإنسان:

ترتيب المراحل بدقة تامة (نطفة، علقة، مضغة، عظام، لحم). تطابقٌ مذهل مع ما كشفه علمُ الأجنَّة الحديث من مراحل نمو الجنين.

وصف الرحم بـ"قرار مكين" يعكس دقته كبيئةٍ محميةٍ لنمو الجنين.

" إنّ علمَ الأجنَّة مِن دلائلِ إعجازِ القرآنِ الكريمِ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾ المؤمنون: ٢١ - ٣١، دقِّقُوا في حروفِ العطفِ، قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾ والقرارُ المكينُ هو الرَّحِمُ، ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ

مُضْغَةً ﴾ المؤمنون: ٤١، ثم جاءت الفاءُ في قوله: ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ﴾ المؤمنون: ١٤.

فمِنَ العلقةِ إلى المضغةِ عطفٌ بالفاءِ، وكذا مِن المضغةِ إلى العظامِ، ومِن العظامِ إلى اللحمِ، أما مِنَ النطفةِ إلى العلقةِ فقد جاء العطفُ بـ "ثُمَّ"، والفاءاتُ بعْدَها متلاحقةٌ، مع العلم أنّ "ثُمّ" حرفُ عطفٍ للترتيب على التراخي، أما الفاءُ فهو حرفُ عطفٍ للترتيبِ والتعقيب.

أَحْدَثُ ما في علمِ الجنينِ أنّ هناك فترةً زمنيَّةً بين مرحلةِ النطفةِ ومرحلةِ العلقةِ، هذه الفترةُ تزيدُ على أسبوعين، حيث يتباطؤُ فيها نموُّ الجنينِ؛ لأنّ هذه المرحلةَ مرحلةُ انغرازِ النطفةِ في جدارِ الرحمِ، والجنينُ في هذه المرحلةِ لا ينمو، ولكنّه يوطِّدُ طرائقَ امتصاصِه للغذاءِ مِنَ الرَّحِمِ، ولا يكونُ في هذه المرحلةِ إلا كقرصٍ من الخلايا المنتظمةِ على شكلِ صَفَّيْنِ مُتَوَازِيَيْنِ، فهذا البطءُ في مرحلةِ نموِّ الجنينِ في الأسبوعِ الثانِي والثالثِ مِنَ اللقاحِ عبَّرَ اللهُ عنه بحرفِ "ثُمَّ"، أمّا مِنَ العلقةِ إلى المضغةِ فقال سبحانه: ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ﴾ المؤمنون: ١٤. وفي مرحلةٍ واحدةٍ قال تعالى: ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ﴾ لمؤمنون: ١٤، خلالَ أسبوعين لا تتَّجهُ هذه البيضةُ الملقَّحةُ التي تكاثرتْ إلى مئةِ خليةٍ إلى النموِّ، بل تتّجِهُ إلى تمكينِ نفسِها من جدارِ الرحمِ، لذلك يتباطؤُ النموُّ، فجاءَ القرآنُ – وهو كلامُ الخالقِ – معبِّرًا عن هذه الحقيقةِ العلميةِ بحرفِ "ثم"، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ المؤمنون: ١٢ – ١٤.

هذا كلامُ ربِّ العالمين، هذا كلامُ خالقِ الكونِ، وآياتُ إعجازِ القرآنِ لا تنقَضِي، وكلّما تقدَّمَ العلمُ كَشَفَ وجهًا من وجوهِ إعجازِ القرآنِ الكريمِ. "[1]

٢- **الإعجاز في "التسوية":**

قال تعالى: "﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ ﴾ الانفطار: ٧

الإعجاز:

"فسواك" تشير إلى التناسق المتكامل في الجسم البشري: تماثل الأعضاء، توازن الأطراف، تناسب العينين، الأذنين، إلخ.

كل خلية موضوعة في مكانها بوظيفةٍ دقيقة، بشكلٍ لا يمكنُ أن يكونَ عشوائيًا.

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ ﴾ التين: ٤ – ٦.

" إنّ اللهَ جل جلاله أَتْقَنَ كلَّ شيءٍ صَنَعَه، وأحسَنَ كلَّ شيءٍ خَلَقَه، وإنك ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ﴾ الملك: ٣، من حيثُ كمال الخَلْقِ، ومع ذلك فقد خصَّ اللهُ الإنسانَ في هذه الآيةِ، وفي آياتٍ أخرى بحُسْنِ التركيبِ، قال تعالى: ﴿ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ ﴾ ٨، وبحسن التقويم: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ﴾ ال تين: ٤، وبحسنِ التعديلِ: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ ﴾ الانفطار: ٧.

---

(١) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة ص(٢٩)، لمحمد راتب النابلسي، الناشر: دار المكتبي – سورية – دمشق – الحلبوني – جادة ابن سينا، الطبعة: الثانية ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.

وهذا فضْلُ عنايةٍ بهذا المخلوقِ المكرَّم، وإشارةٌ إلى أنّ لهذا الإنسانِ شأنًا عندَ اللهِ جلَّ جلاله، وأنّ له وزنًا في نظامِ الكونِ.

فهذا الإنسانُ الذي هو أعقدُ آلةٍ في الكونِ، في خلاياه وأنسجتِه، وفي أعضائِه وأجهزتِه من التعقيدِ والدقَّةِ والإتقانِ ما يَعجَزُ عن فهمِ بِنيتِها، وطريقةِ عملِها حقَّ الفهم أعلمُ العلماءِ.

وفي هذا الإنسانِ نفسٌ تعتلِجُ فيه المشاعرُ والعواطفُ، وتصطرعُ فيها الشهواتُ والقيمُ والحاجاتُ والمبادئ، حيث يعجزُ عن إدراكِ خصائِصها تمام الإدراك أعلمُ علماءِ النفسِ.

وفي هذا الإنسانِ عقلٌ، وفيه من المبادئ والمُسَلَّماتِ والقُوَى الإدراكيةِ والتحليليةِ والإبداعيةِ ما يؤَهِّلُه ليكونَ سيِّدَ المخلوقاتِ وأفْضلَها، ﴿۞وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلًا ٧٠﴾ الإسراء: ٧٠

وممَّا يبيِّنُ ويوضِّحُ أنّ الإنسانَ خُلِقَ في أحسنِ تقويمٍ جهازُ المناعةِ المكتسبُ، أو خطُّ الدفاعِ الثالثُ في جسمِ الإنسانِ.

لقد خصَّ المولى ﷻ الإنسانَ بأجهزةِ دفاعٍ بالغةِ الدقّةِ، وأولُ هذه الأجهزةِ الجلدُ، وهو درعٌ سابغةٌ على البدنِ، تَرُدُّ عنه الجراثيمَ والأوبئةَ، وهو خطُّ الدفاعِ الأولُ، وخصَّ المولى ﷻ كلَّ عضوٍ في الإنسانِ، وكلَّ جهازٍ، وكلَّ حاسّةٍ بجهازِ دفاعٍ خاصٍّ به".[١]

٣- الخلق والتسوية في الكون:

(١) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة ص(٢٩).

قال تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ٣ ﴾ التغابن: ٣.

الإعجاز:

قوانين دقيقة تحكم الكون (الجاذبية، دوران الكواكب، توازن الغلاف الجوي).

كل شيء مخلوق بمقدار محسوب: الشمس لا تحترق أكثر مما ينبغي، والأرض تدور بسرعة مناسبة لحياة البشر.

رابعا: الأثر الروحي والوجداني للتسوية على الإنسان وعلاقته بالكون:

الأثر الروحي والوجداني للتسوية على الإنسان عميق جدًا؛ لأنه يرتبط بإدراكه لقيمته ومكانته في هذا الكون المنظّم ومن ذلك:

١- الشعور بعظمة الخالق: فكلما عَرَفَ العبدُ نفسَه عَرَفَ ربَّه، فيتواضع أمام عظمةِ الخلق، ويزداد إيمانًا وخشوعًا.

٢- يشعر بتقدير الذات والكرامة الإنسانية: إدراك أنَّ الله خلقه وسوّاه في أحسن تقويم، يزرعُ في قلبه الطمأنينة والرضا عن نفسه، ويبعده عن مشاعر الدونية أو الاحتقار الذاتي.

٣- يشعر الإنسان بارتباطه بالكون: كما أن الإنسان مُسوّى ومتناسق، فالكون كذلك مخلوق بتوازن دقيق، مما يشعر الإنسان أنه جزءٌ من نظام كوني مترابط، فيُولِّد داخلَه سلامًا داخليًا وانسجامًا روحيًا مع العالم.

٤- الشعور بالمسؤولية والغاية: إنَّ تسويةَ الإنسان تشيرُ إلى إبداعٍ دقيقٍ وليس عبثًا، وهذا يجعل الإنسان يُدرك أنه لم يُخلق عبثًا؛ بل له هدف وغاية، فيدفعه ذلك للسعي في العبادة والعمل الصالح والتفكر.

٥- تحفيز التأمل والتسبيح: كلما نظر الإنسانُ في نفسِه: عينِه، جلدِه، نبضِه، وعقلِه، ازداد وعيُه بجمال الخلق، مما يبعثه على التسبيح والامتنان لله تعجبًا من خلقه، ويُحيي وجدانه وقلبه.

المطلب الثالث: التقدير والهداية الإلهية في الكون. "وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى"

التقدير الإلهي هو الأساس الذي يستند إليه النظام الكوني المتقن، فقد خلق الله الكون بدقة وحكمة، وجعل كل شيء فيه مقدّرًا بميزانٍ لا يختل، كما قال تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢ ﴾ الفرقان: ٢. فالتقديرُ يشملُ كلَّ صغيرةٍ وكبيرة، ويظهر في حركةِ الكواكبِ ونظامِ الحياةِ وتوازنِ المخلوقاتِ وكلِّ ما في الوجود، فيشمل الخلقَ والأرزاقَ والأعمارَ والابتلاءات.

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ ﴾ هود: ٧.

وقال تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢١ ﴾ الحجر: ٢١.

والهدايةُ من أعظم نعم الله على عباده، وهي الطريق الذي يُوصل إلى الحق والخير، ويمنع من الضلال والانحراف. لم تكن الهدايةُ حكرًا على البشر فقط؛ بل شملت المخلوقاتِ كلَّها والكونَ بما فيه، فهي هدايةٌ عامة كونية، تشمل كلَّ ما خلق الله في هذا الكون من كائنات ومخلوقات، وكلها تدلُ على عظمة الخالق وحكمته، كما ورد في آياتٍ عديدةٍ من القرآن الكريم.

أولا: التفسير:

"والتَّقْدِيرُ: وَضعُ المِقْدَارِ وإِيجَادُهُ فِي الْأَشْيَاءِ فِي ذَوَاتِهَا وَقُوَاهَا، يُقَالُ: قَدَّرَ بِالتَّضْعِيفِ وَقَدَرَ بِالتَّخْفِيفِ بمعنًى.

وَالمِقْدَارُ: أَصْلُهُ كَمِّيَّةُ الشَّيءِ الَّتِي تُضْبَطُ بِالذَّرعِ أَوِ الكَيْلِ أَوِ الوَزْنِ أَوِ العَدِّ، وَأُطْلِقَ هُنَا عَلَى تَكْوِينِ الْمَخْلُوقَاتِ عَلَى كَيْفِيَّاتٍ مُنَظَّمَةٍ مُطَّرِدَةٍ مِن تَرْكِيبِ الْأَجْزَاءِ الْجَسَدِيَّةِ الظَّاهِرَةِ مِثْلَ الْيَدَيْنِ، وَالْبَاطِنَةِ مِثْلَ الْقَلْبِ، وَمِنْ إِيدَاعِ الْقُوَى الْعَقْلِيَّةِ كَالحِسِّ والاسْتِطَاعَةِ وحِيَلِ الصِّنَاعة.

والمَعْنَى: قَدَّرَ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا فَهَدَاهَا إِلَى أَدَاءِ وظائفها كَمَا قدّرها لَهَا، فَاللَّهُ لَمَّا قَدَّرَ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ قَابِلًا لِلنُّطْقِ وَالْعِلْمِ وَالصِّنَاعَةِ بِمَا وَهَبَهُ مِنَ الْعَقْلِ وَآلَاتِ الْجَسَدِ هَدَاهُ لِاسْتِعْمَالِ فِكْرِهِ لِمَا يحصّل لَهُ مَا خُلِقَ لَهُ، وَلَمَّا قَدَّرَ الْبَقَرَةَ لِلدَّرِّ ألهمها الرَّعْي ورئمان وَلَدِهَا لِتَدِرَّ بِذَلِك لِلْحَالِبِ، ولمَّا قَدَّرَ النَّحْلَ لِإِنْتَاجِ العَسَلِ أَلْهَمَهَا أَنْ تَرْعَى النَّوَرَ وَالثِّمَارَ وَأَلْهَمَهَا بِنَاءَ الجَبْحِ وَخَلَايَاهُ المُسَدَّسَةِ التِي تَضَعُ فِيهَا الْعَسَلَ.

فَهَدَى كُلَّ مُقَدَّرٍ إِلَى مَا قُدِّرَ لَه، فَهِدَايَةُ الإِنْسَانِ وَأَنْوَاعِ جِنْسِهِ مِنَ الْحَيَوَانِ الَّذِي لَهُ الْإِدْرَاكُ وَالْإِرَادَةُ هِيَ هِدَايَةُ الْإِلْهَامِ إِلَى كَيْفِيَّةِ اسْتِعْمَالِ مَا قُدِّرَ فِيهِ مِن المَقَادِيرِ والقُوَى فِيمَا يُنَاسِبُ اسْتِعْمَالَهُ فِيهِ فَكُلَّمَا حَصَلَ شَيْءٌ مِنْ آثَارِ ذَلِكَ التَّقْدِيرِ حَصَلَ بِأَثَرِهِ الاِهْتِدَاءُ إِلَى تَنْفِيذِه." [1]

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ الفرقان: ٢. إشارة إلى أنه ما من شيء خلقه في هذا الكون، كَبُر شأنُه أو صَغُر، طال حجمُه أو قَصُر، إلا وقد حددت الحكمة الإلهية شكله وحجمه، وطبيعته ووظيفته، والفائدة المترتبة على وجوده، والعَلاقة التي تربطه بغيره من الكائنات، كل ذلك في نظام متناسق ثابت لا خلل فيه ولا اضطراب[2].

(١) يراجع: التحرير والتنوير (٢٧٦/٣٠).

(٢) التيسير في أحاديث التفسير (٣٠٩/٤)، لمحمد المكي الناصري (المتوفى: ١٤١٤هـ)، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م.

وقال الزمخشري: " المعنى أنه أحدث كل شيءٍ إحداثًا مُراعى فيه التقديرُ والتسوية، فقدره وهيَّأه لما يصلح له، مثاله أنه خلق الإنسان على هذا الشكل المقدر المسوَّى الذي تراه، فقدره للتكاليف والمصالح المنوطةِ به في بابي: الدين والدنيا، وكذلك كل حيوان وجماد جاء به على الجبلة المستوية المقدرة بأمثلة الحكمة والتدبير، فقدره لأمر ما، ومصلحة ما، مطابقًا لما قدره له، غير متجاف عنه". (١)

الهداية أربعة أنواع:

١- الهداية الجِبلّية أو الفطرية: وهي الهداية بالفطرة التي فطر الله تعالى عليها كل الناس فالكل يؤمن بوجود الله تعالى بالفطرة. والله تعالى خلق كل مخلوق وهداه لطريقة معاشه ولا يستطيع أحد أن يدّعي أن الله تعالى لم يهده لطريقة معاشه، فنرى الطيور تهاجر من بلد إلى آخر على شكل أسراب منتظمة في مواسم معينة، فمن الذي هداها لطريقها؟ الله وضع الموجِّه في عقول هذه الطيور.

قال تعالى ﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ ﴾ الأعلى: ٣. أي أرشد إلى طبيعة الخلق، والهداية الفطرية هي أن يعرف المخلوق كيف يسعى لرزقه وكيف يعرف ربَّه الإله الواحد. قال الرسول صلى الله عليه وسلم: كل مولودٍ يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه".(٢) وهذه الهداية هي نعمة من الله تعالى؛ لأنه لو لم تكن موجودة لعمّت ظاهرة التخلف العقلي، ووجود المتخلفين عقليًا بين

(١) تفسير الزمخشري (٢٦٣/٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (١٠٠/٢) (١٣٨٥) كتاب: الجنائز، باب: ما قيل في أولاد المشركين، ومسلم في صحيحه (٢٠٤٨/٤)(٢٦٥٨)، كتاب: القدر، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين.

الناس إنما خلقهم الله تعالى حتى نعرف مقدار النعمة التي أنعمها علينا أن هدانا للهداية الفطرية الجبلّية التي هي أول مراحل الهداية.

٢- الهداية الإرشادية: وهي الهداية التي بها يُرينا الله تعالى الطريقة التي يريدنا أن نتعبده بها، والله تعالى يهدينا هدايةَ الإرشاد عن طريق الأنبياء والمرسلين ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ الضحى: ٧. أي علّمك كيف تصل إليه. فيجب أنْ نتعلمَ طريقة الطاعة التي يرضاها الله تعالى، فلم يتركنا سبحانه نتخبّط عشوائيًا، وإنما أرسل الرسلَ والأنبياءَ وأنزل معهم الكتب ليبيّن لنا طرق العبادة والدعوة ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥﴾ الإسراء: ١٥

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥﴾ الأحزاب: ٤٥. ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ الشورى: ٥٢. تهدي هنا بمعنى تُرشد إلى طريق الطاعة الذي يوصلنا إلى الله تعالى ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ البلد: ١٠. أي أرشدناه، والله تعالى يُرشد الناس، والإنسان يختار، فإن اختار الهدايةَ يهديه الله تعالى الهدايةَ التالية، وهي الهدايةُ التوفيقية ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن﴾ الكهف: ٢٩.

٣- الهداية التوفيقية: وهي عندما يوفق الله تعالى أهلَ الطاعة للطاعة، والتي نحصل عليها بتوفيق من الله تعالى ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝٨٨﴾ هود: ٨٨، وهذه هي الهداية التي قال فيها تعالى مخاطبًا رسولَه الكريمَ محمدًا ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦﴾ القصص: ٥٦، فالهداية هنا هداية توفيقية من الله تعالى للعباد فيوفقهم لطاعته' (تهدي) هنا بمعنى (توفّق). يقول تعالى: : ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إبراهيم: ٢٧. ولا يثبّت العصاة، وهذا من توفيقه لعباده

المؤمنين أن يثبتهم بعد تحقق الإيمان. ولو أنَّ الإنسان يعبدُ الله تعالى ويستعينُ به يكون من المهتدين ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ الفاتحة: ٥ – ٦

طلب الهداية في هذه الآية إنما هو طلب الهداية التوفيقية أي طلب التثبيت **على** الطاعة. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦﴾ القصص: ٥٦، أي يوفّق ويثبّت على طريق طاعته من يشاء من العباد أن يسلك طريق الطاعة.

٤- هداية الله تعالى لأهل الجنّة أو الهداية الأخروية: عندما يضلّ الناس يوم الحشر وتُحشر الخلائق وتدنو الشمس من الرؤوس وتتساقط لحوم الوجوه من الوَجَل إذا بنورٍ يسطعُ للمؤمنين فقط، يَدلُّهم على طريق الجنةِ وسط الظلمات ﴿نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ الحديد: ٢١

﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾ محمد: ٥ - ٦

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ الأعراف: ٤٣

فالهدايةُ الأخروية هي هداية الله تعالى يوم القيامة للمؤمنين للدخول إلى الجنة برحمة الله ﷻ". (١)

ولما كانت سورة الأعلى متمحضة لذكر التزكية وما تتم به التزكية من الإقراء والتيسير والتذكير، ذكر ما يناسب هذه التزكية وما تتم به من التسوية والهداية.

قال ابن عاشور: "وأُوثِرَ وَصْفَا التَّسْوِيَةِ والهِدَايَةِ مِن بَيْنِ صِفَاتِ الْأَفْعَالِ الَّتِي هِيَ نِعَمٌ عَلَى النَّاسِ وَدَالَّةٌ عَلَى اسْتِحْقَاقِ اللَّهِ تَعَالَى للتنزيه؛ لأَن هذَيْن

(١) الإعجاز اللغوي البياني في القرآن ص(٤٠١)، جمع وإعداد، الباحث، علي بن نايف الشحود.

الوَصْفَيْنِ مُنَاسَبَةٌ بِمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيهِ مِن السُّورَة، فَإِنَّ الَّذِي يُسَوِّي خَلْقَ النَّبِيءِ صلى الله عليه وسلم تَسْوِيَةً تُلَائِمُ مَا خَلَقَهُ لِأَجْلِهِ مِنْ تَحَمُّلِ أَعْبَاءِ الرِّسَالَة، لَا يَفُوتُهُ أَنْ يُهَيِّئَهُ لحِفظِ ما يُوحِيهِ إِلَيه وَتَيْسِيرِهِ عَلَيْهِ وَإِعْطَائِهِ شَرِيعَةً مُنَاسِبَةً لِذَلِك التَّيْسِير، قَال تَعَالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾ الأعلى: ٦

وَقَالَ: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨﴾ الأعلى: ٨.[1]

التقدير الإلهي في الكون يتمثل في:

١- خلق السماوات والأرض

قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ الزمر: ٥

قال الرازي: "كلُّ فلكٍ مخصوص اختصَّ بمقدارٍ معين مع جواز أن يكون الذي كان حاصلا مقدارًا أزيد منه أو أنقص منه، وإذا ثبت هذا فنقول: إنه لا معنى للخلق إلا التقدير، فلما دلَّ العقلُ على حصول التقدير، وجب حصولُ الخلق".[2]

٢- دورة الحياة

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ آل عمران: ١٨٥.

فالأجل والرزق مكتوبان لكل مخلوق.

٣- الطبيعة والبيئة

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ المؤمنون: ١٨.

فالنظام البيئي متوازن وفق تقدير إلهي مُحكم.

٤- الخلق الإنساني

قال تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ المؤمنون: ١٤.

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧٧/٣٠).

(٢) تفسير الرازي (٤٧٧/١٢، ٤٧٨).

مراحل خلق الإنسان تُجسِّد التقدير الإلهي الدقيق.

والهداية الكونية في الكون تتمثل في:

١- الإنسان: كالتنفس، والهضم، والتفكير، والغريزة، والميل نحو الخير.

قال تعالى: "أعطى كل شيء خلقه ثم هدى".

٢- الحيوان: كالهجرة المنظمة للطيور، واتخاذ النحل للبيوت، وتخزين الغذاء عند النمل.

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾ النحل: ٦٨.

٣- النبات: اتجاه الزهور للشمس، وانتشار البذور بطرقٍ عجيبة.

٤- الجماد: كحركة الشمس والقمر والنجوم بنظامٍ دقيق.

قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ يس: ٣٨.

ثانيا: الدلالة الكونية للتقدير والهداية:

١- التقدير والهداية دليل على وجود الله: إذ لا يمكن أن يُوجد هذا النظام بلا خالق حكيم، فهذا النظام المتكامل في الكون دليل على الصانع الحكيم، وكل مخلوق يعرفُ وظيفته ويسيرُ في طريقه، ولا مجال للصدفة في هذه الدقة، فكل شيء خُلق بقدر.

قال تعالى: حكاية عن موسى وردًا على فرعون حين سأل عن الرب ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ طه: ٥٠.

قال الألوسي: " ثُمَّ هَدى أي أرشد ودلَّ سبحانه بذلك على وجوده، فإنَ مَن نظر في هذه المحدثات وما تضمنته من دقائق الحكمة علم أنَّ لها صانعًا واجبَ الوجود، عظيمَ العطاء والجود ".(١)

٢- التقدير والهداية دليل على وحدانية الله.

أ- التقدير كدليل على وحدانية الله.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾﴾ غافر: ٦٢.

وقال: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾﴾ الزمر: ٤ – ٥.

يذكر الله تعالى خلقَه للكون كدليل على وحدانيته تعالى، قال الرازي: " الدلائل التي ذكرها الله تعالى في إثبات إلهيته، إما أن تكون فلكية أو عنصرية، أما الفلكية فأقسام، أحدها: خلق السموات والأرض، وهذا المعنى يدل على وجود الإله القادر، والثاني:

اختلاف أحوال الليل والنهار، وهو المراد هاهنا من قوله: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ الزمر: ٥، وذلك لأن النور والظلمة عسكران مهيبان عظيمان، وفي كل يوم يغلب هذا ذاك تارة، وذاك هذا أخرى، وذلك يدل

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (٥١٤/٨)، لشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت: ١٢٧٠هـ)، المحقق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الأولى، ١٤١٥هـ.

على أنَّ كلَّ واحد منهما مغلوب مقهور، ولا بد من غالب قاهر لهما يكونان تحت تدبيره وقهره وهو الله ".[١]

ب- الهداية كدليل على وحدانية الله

النظام الدقيق في الكون، ودلالة كل مخلوق إلى وظيفته، هي دليل على عظمة الله ووحدانيته، وقد استدل بها الله تعالى على وحدانيته، واستدلَّ بها النبي صلى الله عليه وسلم واستدل بها إبراهيم.

قال الرازي: "اعلم أن موسى استدلَّ على إثبات الصانع بأحوال المخلوقات، وهو قوله: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ طه: ٥٠. وهذه الدلالة هي التي ذكرها الله تعالى لمحمَّد صلى الله عليه وسلم في قوله: ﴿ سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ الأعلى:١ - ٣ . قال إبراهيم: ﴿ فَإِنَّهُمۡ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ ﴾ الشعراء: ٧٧ – ٧٨. وإنَّ موسى في أكثر الأمور يُعوِّلُ على دلائل إبراهيم...، واعلم أنه يشبه أنْ يكون الخلق عبارة عن تركيب القوالب والأبدان، والهداية عبارة عن إبداع القُوى المدركة والمحركة في تلك الأجسام، وعلى هذا التقدير يكون الخلق مقدما على الهداية؛ ولذلك قال: ﴿ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ الحجر: ٢٩، فالتسوية راجعة إلى القالب، ونفخ الروح إشارة إلى إبداع القوى، وقال: : ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴿١٢﴾ ﴾ المؤمنون: ٢١. إلى أن قال: ﴿ ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ المؤمنون: ١٤ فظهر أن الخلقَ مُقدم على الهداية".[٢]

(١) تفسير الرازي (٤٢٣/٢٦).

(٢) تفسير الرازي (٥٧/٢٢، ٥٨).

٣- التقدير والهداية دليل على حكمة الله وعلمه، فجعل لكل مخلوق وظيفة ودورًا يؤديه بإتقان، وضبط الكون ومنع من اختلاله.

قال ابن عادل: " واعلم أن عجائب حكمة الله تعالى في الخلق والهداية بحر لا ساحل له، ولنذكر منه أمثلة:

أحدها: أنَّ الطبيعي يقول: الثقيل هابط، والخفيف صاعد، وأثقل الأشياء الأرض ثم الماء، وأخفها النار ثم الهواء، فلذلك وجب أن تكون النار أعلى العنصريات والأرض أسفلها، ثم إنه تعالى قلب هذا في خلقة الإنسان؛ فجعل أعلى الأشياء منه العظم والشعر، وهما أيْبَسُ ما في البدن، وهما بمنزلة الأرض، ثم جعل تحته الدماغ الذي هو بمنزلة الماء، وجعل تحته النفس التي هو بمنزلة الهواء، وجعل تحته الحرارة الغريزية التي في القلب، وهي بمنزلة النار، فجعل مكان الأرض من البدن الأعلى، وجعل مكان النار من البدن الأسفل؛ ليعلم أن ذلك بتدبير القادر الحكيم لا باقتضاء العلة والطبيعة.

وثانيها: أنَّك إذا نظرت إلى عجائبِ النحل في تركيب البيوت المسدسة وقسمتها، وعجائب أحوال البَقِّ والبعوض والنمل في اهتدائها إلى مصالح أنفسها لعرفت أن ذلك لا يمكن إلا بإلهام مدبرٍ عالمٍ بجميع المعلومات.

وثالثها: أنه تعالى هو الذي أنعم على الخلائق بما به قوامهم من المطعوم والمشروب والملبوس والمنكوح، ثم هداهم إلى كيفية الانتفاع بها فيستخرجون المعادن من الجبال، واللآلئ من البحار، ويركبون الأدوية والدرياقات النافعة، ويجمعون بين الأشياء المختلفة، ويستخرجون لذائذ الأطعمة، فدلَّ ذلك على أنه ﷻ هو الذي خلق الأشياء ثم أعطاهم العقول التي بها يتوصلون إلى كيفية الانتفاع بها..." [١]

(١) اللباب في علوم الكتاب (٢٦٧/١٣)، لأبي حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل =

٤- التقدير والهداية دعوة للتفكر والتأمل

قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ ال بقرة:٤٦١.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ آل عمران: ١٩٠ – ١٩١.

"قَالَ أَبُو مُسْلِم: أَصْلُ الخَلْقِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ التَّقْدِيرُ، وصَارَ ذَلِك اسْمًا لِأَفْعَالِ اللَّهِ تَعَالَى لَمَّا كَانَ جَمِيعُهَا صَوَابًا، قَالَ تَعَالى: وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً [الْفُرْقَانِ: ٢] وَيَقُولُ النَّاسُ فِي كُلِّ أَمْرٍ مُحْكَمٍ هُو مَعْمُولٌ عَلَى تَقْدِير". (١)

قَالَ الرازي: "دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ الِاسْتِدْلَالِ عَلى وُجُودِ الصَّانِعِ بِالدَّلَائِلِ العَقْلِيَّةِ وأَنَّ التَّقْلِيدَ لَيْسَ طريقا – ألبتة – إِلَى تَحْصِيلِ هَذَا الْغَرَض". (٢)

وقال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْأَفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ

=

الحنبلي الدمشقي النعماني (المتوفى: ٧٧٥هـ)، المحقق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان، ط: الأولى، ١٤١٩ هـ –١٩٩٨م.

(١) تفسير الرازي (١٥٢/٤).

(٢) تفسير الرازي (١٥٢/٤).

أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ فصلت: ٣٥

وقال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ الذاريات: ١٢.

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾﴾ الغاشية: ١٧ – ١٨.

ثالثا: مظاهر الإعجاز العلمي في التقدير والهداية في القرآن الكريم

تكشف عن دقة التنظيم الإلهي في خلق المخلوقات وتوجيهها فطريًا أو كونيًا، رغم غياب العقل أو التعليم المباشر، وإليك أهم هذه المظاهر:

١- **التقدير:**

قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ﴿٢﴾﴾ الفرقان: ٢.

كل شيء في الكون يعمل بنظام دقيق ومحسوب، من دوران الإلكترونات في الذرة إلى حركة المجرات.

خصائص الأجسام مهيّأة بدقة لتأدية وظيفتها: الماء بدرجة تجمده، الهواء بنسبة الأكسجين المناسبة.

التقدير في الجينات الوراثية، فالـ DNA يحمل أوامر محددة لتكوين كل مخلوق بتفاصيله. (١)

٢- **الهداية الفطرية في الكائنات:**

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾: ٥٠.

– الحيوانات تسلك سلوكًا غريزيًا دقيقًا من لحظة ولادتها دون تعليم:

– النحل يبني خلاياه السداسية بدقة هندسية مذهلة.

(١) مستفاد من: الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ص(١٥٣) وما بعدها، المرحلة: ماجستير، المؤلف: مناهج جامعة المدينة العالمية، الناشر: جامعة المدينة العالمية.

– الطيور المهاجرة تسير لمسافاتٍ طويلةٍ في مواسم محددة بدقة مدهشة، تهتدي إلى مواقعها دون خرائط.

– الرضيع يعرف طريقه للرضاعة فور الولادة.

كل هذه السلوكيات تدل على "هداية فطرية" من الله، وهو ما يُعرف علميًا بـ"البرمجة البيولوجية" أو "السلوك الغريزي".

٣– الهداية الكونية:

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧﴾ الرحمن: ٧.

وقال تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ۝١٩﴾ الحجر: ١٩.

مِن آياتِ اللهِ الدالةِ على عظمتِه أنّ اللهَ ﷻ خَلَقَ كلَّ شيء، وجعلَه موزونًا، لئلا يَطغَى شيءٌ على شيء. (١)

٤– الهداية الشرعية للإنسان:

قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ الإنسان: ٣.

العقل البشري مهيأ للفهم والاختيار، وله قدرة على التمييز بين الخير والشر.

هناك انسجام داخلي بين الفطرة والعقل والوحي، وكلها تهدي الإنسان نحو الصواب، لأن الله خلقه سويًّا حنيفيا مائلا نحو الخير، وجعل الاختيار ابتلاء له، فإن اختار الخير يُسِّرَ له، وإن اختار الشر يُسِّرَ له، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠﴾ الليل: ٥ – ١٠.

(١) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة ص(٣٥).

رابعا: الأثر الروحي والوجداني للتقدير والهداية على الإنسان وعلاقته بالكون:

هذا الأثر كبير وعميق، لأنه يمسّ إحساسه بالوجود، ومعنى الحياة، وعلاقته بالله، ومن أبرز هذه الآثار:

١- الطمأنينة والثقة بالله: حين يدرك الإنسان أنَّ الله قدّر له كل شيء بحكمة – ورزقه عمره وقدراته، وحتى ابتلاءاته – يشعر بالسكينة والرضا، ويطمئن أن كل ما يجري له في مصلحته، حتى لو لم يفهمه.

٢- الشعور بالحب الإلهي والرعاية والامتنان: قال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ٥٠﴾ طه: ٥٠، أي أن الله خلقك ووجّهك لما فيه خيرك، وهذا يجعل الإنسان يشعر أنه محبوبٌ عند الله ومُعتنَى به، مما يملأ قلبه امتنانًا.

٣- وضوح الغاية والطريق: الهداية تعني أن للإنسان سبيلًا واضحًا في الحياة، وأنه ليس تائهًا في هذا الكون، وهذا يعمّق داخله الإحساس بالمعنى والهدف، مما يشحن وجدانه بالحماسة والاتزان.

٤- الصبر والتسليم في الأقدار: التقدير يمنح الإنسان توازنًا نفسيًا؛ فلا يجزع في المصيبة، ولا يطغى عند النعمة؛ بل يعلم أن كل شيء مكتوب بحكمة، فيكون قلبه مطمئنًا راضيًا بالله.

٥- التعلق بالهداية والخوف من الضياع: عندما يدرك الإنسان أن الهداية نعمة، يشعر بحرصٍ دائمٍ على القرب من الله، ويخاف من فقدان هذا النور، فينمو داخله التواضع واليقظة القلبية.

٦- الانسجام مع الكون والخلق: فكما أن الله قدّر للكائنات سُبلها، وقدّر للكون قوانينه، فهو أيضًا هدى الإنسان لطريق الحق، مما يجعل الإنسان يشعر بالانسجام مع النظام الكوني ويبتعد عن الفوضى والاضطراب.

المطلب الرابع: دورة النبات ودلالتها الكونية. "وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى"

يُعد النبات من أعظم مظاهر قدرة الله في الكون، حيث يُجسد دورة الحياة والنظام البيئي المتكامل الذي خلقه الله، وقد أشار القرآن الكريم إلى دورة النبات بدقة وإعجاز، وربطها بدلالات كونية عظيمة تعكس الحكمة الإلهية في الخلق والرزق وإحياء الأرض بعد موتها.

دورة النبات تشير إلى المراحل المختلفة التي يمر بها النبات، وقد ذكر القرآن مراحل هذه الدورة، بدءًا من التربة والماء والرياح كوسيط، ثم البذرة والنبتة، ثم النمو المتدرج والإثمار، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ الأنبياء:٣٠، وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ الحجر: ٢٢.

قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾ الحج: ٥.

وقال تعالى: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾﴾ عبس:٧٢ - ٩٢.

وقال تعالى: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾﴾ ق: ١٠.

وقال تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾النحل: ٦٧.

أولا: التفسير:

تصور الآية دورة الحياة النباتية التي تبدأ بالنمو بعد المطر، فتغطي الأرض بالخضرة والنباتات التي تصبح مصدرًا للغذاء.

أخرج: أي أنبت وأظهر من الأرض.

المرعى: كل ما ينبت من نباتات وأشجار يتغذى عليها الإنسان والحيوان.

قال الطبري: "وقوله: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ۝٤﴾ " الأعلى: ٤. يقول: والذي أخرج من الأرض مرعى الأنعام من صنوف النبات وأنواع الحشيش".(١)

ثانيا: الدلالة الكونية لدورة النبات في القرآن:

١- دورة النبات دليل على الإعجاز في الخلق والنمو وتوحيد الله إلهًا خالقا، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ۝١٠ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝١١﴾ لقمان: ١٠ – ١١.

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: هذا الذي أعددتُ عليكم أيها الناس أني خلقته في هذه الآية خلق الله الذي له ألوهة كل شيء، وعبادة كل خلق، الذي لا تصلح العبادة لغيره، ولا تنبغي لشيء سواه، فأروني أيها المشركون في عبادتكم إياه من دونه من الآلهة والأوثان، أي شيء خلق الذين من دونه من آلهتكم وأصنامكم، حتى استحقت عليكم العبادة فعبدتموها من دونه؟ كما استحقّ ذلك عليكم خالقكم، وخالق هذه الأشياء التي عددتها عليكم".(٢)

٢- دورة النبات دليل حسي على وجود الله وتوحيده وقدرته وحكمته ودليل على إحياء الموتى، والله سبحانه إنما يدعو عباده إلى النظر والفكر في مخلوقاته العظام لظهور أثر الدلالة فيها وبديع عجائب الصنعة والحكمة فيها واتساع مجال الفكر والنظر في أرجائها، قال تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٥٠﴾ الروم:٥٠.

(١) تفسير الطبري (٣٦٩/٢٤).

(٢) تفسير الطبري (١٣٣/٢٠)..

" وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ فصلت: ٣٩. أي ومن دلائل قدرته تعالى على البعث وإعادة الموتى أحياءً أنك ترى الأرض هامدة لا نبات فيها؛ بل هي ميتة، فإذا أنزل الله عليها المطر تحركت بالنبات، وانتفخت وعلت، وأخرجت من جميع ألوان الزروع والثمار.

إن الذي أحيا هذه الأرض الجدبة بالنبات والزرع، قادر على أن يحيي الأموات، فإنه الرب القدير الذي لا يعجزه شيء كائنا ما كان.

وقوله تعالى: (أَنَّكَ تَرَى) الخطاب لكل عاقل، وهذا دليل حسي متكرر في القرآن يُقرب للأذهان صورة الإحياء بعد الإماتة، والمعوِّل عليه هو قدرة الله الخالق ابتداء وانتهاء وكل وقت.

وقد تكرر هذا الدليل مرارًا في القرآن، والدليل الأصلي هو قوله: ﴿ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فصلت: ٣٩. وتقديره كما ذكر الرازي: "أي عودة التأليف والتركيب إلى تلك الأجزاء المتفرقة ممكن لذاته، وعود الحياة والعقل والقدرة إلى تلك الأجزاء بعد اجتماعها أيضا أمر ممكن لذاته، والله تعالى قادر على الممكنات، فوجب أن يكون قادرا على إعادة التركيب والتأليف والحياة والقدرة والعقل والفهم إلى تلك الأجزاء، مما يدل دلالة واضحة على أن حشر الأجساد ممكن لا امتناع فيه". (١)

٣- دورة النبات كجزء من النظام البيئي المتكامل

النبات أساس للحياة على الأرض، حيث يساهم في إنتاج الأكسجين، وتوفير الغذاء للإنسان والحيوان.

قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ الحجر: ٢٠.

(١) التفسير المنير للزحيلي (٢٣٦/٢٤).

٤- دورة النبات تذكر بنعم الله التي لا تُحصى

قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾﴾ عبس: ٢٤ - ٢٧.

٥- دورة النبات دعوة للتفكر والتأمل

قال تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ الروم:٥٠.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ البقرة:١٦٤.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾﴾ الشعراء: ٧.(١)

المطلب الخامس: التحول البيئي ودورة الحياة. "فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى"

يتناول القرآن الكريم في آياته الكونية مظاهر التحول البيئي ودورة الحياة، ويربطها بدلالات إيمانية عظيمة تدعو الإنسان للتفكر في قدرة الله وحكمته، تصور هذه الآية دورة الحياة للنبات من الخلق والنمو، ثم الذبول والانتهاء، وهي إشارة إلى سُنن الله في الكون ودورة الحياة الطبيعية التي تُظهر بداية الخلق ونهايته.

(١) مستفاد من: الآيات الكونية دراسة عقدية ص(٣٤٧) وما بعدها، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة، كلية أصول الدين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – الرياض، إعداد: عبد المجيد بن محمد الوعلان، إشراف: عبد الكريم بن محمد الحميدي، الأستاذ المشارك، العام الجامعي: ١٤٣٢هـ/ ١٤٣٣هـ.

أولا: التفسير:

" الغُثَاءُ: بضَمِّ الغَيْنِ المُعْجَمَةِ وتَخفِيفِ المُثَلَّثَة، ويُقَالُ بِتَشدِيدِ المُثَلَّثَةِ هو اليَابِسُ مِنَ النَّبْت.

والأَحْوَى: المَوْصُوفُ بِالحُوَّةِ – بِضَمِّ الحَاء وَتَشْدِيدِ الوَاو – وهِي مِنَ الأَلْوَانِ: سُمْرَةٌ تَقْرُبُ مِنَ السَّوَادِ. وهُوَ صِفَةُ غُثَاءً لأَنَّ الغُثَاءَ يَابِسٌ فَتَصِيرُ خُضرَتُهُ حُوَّةً.

وَهَذَا الْوَصْفُ أَحوَى لِاسْتِحْضَارِ تَغَيُّرِ لَوْنِهِ بَعْدَ أَنْ كَانَ أَخْضَرَ يَانِعًا وَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى تَصَرُّفِهِ تَعَالَى بِالْإِنْشَاءِ وبِالإِنْهَاء". (١)

قال أبو حيان: "وقيل: أحوى حالٌ من المرعى، أي أخرج المرعى أحوى، أي للسواد من شدة خضرته ونضارته لكثرة رِيِّه، وحَسُنَ تأخيرُ أحوى لأجل الفواصل".(٢)

دورة حياة النبات في القرآن الكريم

قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥﴾ الحج: ٥.

هذه الدورة تشمل مراحل الإحياء والنمو ثم الذبول والزوال، تمامًا كما جاء في قوله: ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾ الأعلى: ٥.

المياه وأثرها في دورة حياة النبات

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝١٠﴾ لقمان: ١٠.

الماء هو العامل الرئيس الذي يطلق دورة حياة النبات ويضمن استمراريتها.

(١) التحرير والتنوير (٢٧٨/٣٠).

(٢) البحر المحيط (٤٥٦/١٠).

ثانيا: الدلالة الكونية للتحول البيئي ودورة الحياة:

١- التحول البيئي دلالة على قدرة الله وحكمته في الإحياء والإماتة والبعث بعد الموت فالتحول من الخضرة إلى الغثاء يعكس قدرة الله على التحكم في دورة الحياة.

وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۤۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابًا ثِقَالًا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٥٧ ﴾ الأعراف: ٥٧.

قال الماتريدي: "يذكرهم في هذا حكمته وقدرته ونعمه؛ ليحتجَّ بها عليهم بالبعث، أما حكمته فبما يرسل الرياح والأمطار، ويسوقها إلى المكان الذي يريد أن يمطر فيه ما لم يعاينوا ذلك وشاهدوه ما عرفوا، أنْ كيف يرسل المطر من السماء، وكيف يرسل الريح، ويسوق السحاب، ففي ذلك تذكير حكمته إياهم. وأما نعمه: فهو ما يسوق السحاب بالريح إلى المكان الذي فيه حاجة إلى المطر، فيرسل على ذلك المكان المطر، وذلك من عظيم نعمه؛ ليعلم أن ذلك كان برحمته، لا أنهم كانوا مستوجبين لذلك.

وأما ما ذكرهم من قدرته: فهو ما ذكر من إحياء الأرض بعد ما كان ميتة؛ ليعلم أن الذي قدر على إحياء الأرض، وإخراج النبات والثمر بعدما كان ميتًا، لقادر على إحياء الموتى وبعثهم بعد موتهم، على ما قدر على إحياء الأرض بالنبات وإحياء النخل بالثمار بعدما كان علم كل أن لا نبات فيها ولا ثمار فيه؛ فإذا خرج النبات منها والثمار من النخيل على ما خرج في العام الأول، دل ذلك على وحدانيته وقدرته على إحياء الموتى وبعثهم بعدما ماتوا وصاروا ترابًا على قدر ما ذكرنا، واللَّه أعلم... كذلك يخرج الموتى بعد ما ماتوا وذهب أثرهم كما

أخرج النبات والثمار من الأرض والنخل من بعد ما ماتوا وذهب أثر ذلك النبات وذلك الثمار، فعلى ذلك يخرج الموتى بعد ما ذهب أثرهم حتى لم يبق شيء". (١)

٢- التحول البيئي دلالة على التذكير بزوال الدنيا وعدم الاغترار بها والاستغراق في شهواتها.

دورة النبات من النضارة إلى الذبول تشبه حياة الإنسان، فهي تذكير بزوال الدنيا وبعث الإنسان.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ يونس: ٤٢.

قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ الحديد: ٢٠.

وليس في التمثيل بمتاع الحياة الدنيا ما يفيد وجوب انصراف الإنسان عن مُتع الحياة ومطالبها، وكل ما يفيده هو التحذير من الاغترار بها والاستغراق في شهواتها استغراقا يجرُّ إلى الإثم والفواحش، وينسى الإنسان واجباته نحو الله والناس التي فيها – وحدها – السلامة في الدنيا والآخرة". (٢)

---

(١) تأويلات أهل السنة (٤/٤٦٤).

(٢) التفسير الحديث (٣/٤٦٠)، لدروزة محمد عزت، الناشر: دار إحياء الكتب العربية – القاهرة.

٣- التحول البيئي كرمز لحال الحياة الدنيا

قال تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ٤٥﴾ الكهف: ٤٥.

٤- التحول البيئي كتذكير بالموت

قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢١﴾ الزمر: ٢١

قال الرازي: "يَعْنِي أَنَّ مَن شَاهَدَ هَذِهِ الْأَحْوَالَ فِي النَّبَاتِ عَلِمَ أَنَّ أَحْوَالَ الحَيَوَانِ وَالْإِنْسَانِ كَذَلِكَ، وَأَنَّهُ وإِنْ طَالَ عُمُرُهُ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنَ الِانْتِهَاءِ إِلَى أَن يَصِيرَ مُصْفَرَّ اللَّوْنِ مُنْحَطِمَ الْأَعْضَاءِ والْأَجْزَاءِ، ثُمَّ تَكُونُ عَاقِبَتُهُ المَوْت. فَإِذا كَانَتْ مُشَاهَدَةُ هَذِهِ الْأَحْوَالِ فِي النَّبَاتِ تُذَكِّرُهُ حُصُولَ مِثْلِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ فِي نَفْسِهِ وَفِي حَيَاتِهِ، فَحِينَئِذٍ تَعْظُمُ نَفْرَتُهُ فِي الدُّنْيا وطَيِّبَاتِها". (١)

ثالثا: مظاهر الإعجاز العلمي للنبات:

مظاهر الإعجاز العلمي للنبات مدهشة جدًا، وتُظهر دقةَ الخلق والتوازن البيئي، ومنها:

١- **الخروج من الأرض:**

قال تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٧﴾ ق: ٧.

النباتات تنمو من بذورٍ دقيقة تحت الأرض لتتحول إلى أشجار ضخمة.

(١) تفسير الرازي (٤٣٩/٢٦).

خروج النبات يعتمد على معادلات فيزيائية دقيقة (الضغط، الرطوبة، الضوء).

"والنبات يبدأ حياته في الغالب بذرة أو نواة توضع في الأرض وتُسقى بالماء، ثم تنفلق ويخرج منها جُذير يمتد إلى أسفل، وسُويق يمتد إلى أعلى، وهو ما عبّر عنه القرآن الكريم بقوله: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾﴾ عبس: ٢٦، وهذا الدور من حياة النبات يمكن أن يُسمى دور الإنبات، وفيه تنشق الأرض عن النبتة الصغيرة ذات الورقتين الخضراوين، وفيه لا تأخذ البذرة أو النواة من خارج الأرض إلا الماء والأكسجين، أما ما عدا ذلك من الغذاء اللازم لتكوين الجُذير والسُّويق والورقتين فتستمد مما أودع الله الحب والنوى من مواد عضوية كالنشا، قدّرها الله بحيث تكفي لتكوين تلك الأعضاء، وعلى الجذير والورقتين يتوقف غذاء النبات بعد ذلك؛ فالجُذير يمتص الماء وما فيه من أملاح ذائبة في الأرض، والوريقات الخضر تقوم بعمليتي التنفس والتمثيل الخضري".[(١)]

٢- الزوجية في النبات:

قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ الذاريات: ٤٩.

﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ يس: ٣٦.

وقوله: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ الرعد: ٣.

(١) ينظر: الإسلام في عصر العلم: ص(٣٥٦) بتصرف/ محمد أحمد الغمراوي، القاهرة، دار الإنسان، ١٩٧٣م.

تأكيد أن النبات فيه زوجية (ذكر وأنثى) حتى قبل اكتشاف التلقيح والـ DNA.

جميع النباتات تتكاثر عبر عملية تلقيح تشمل خلايا تناسلية مختلفة.

"المقصود بالزوج في مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥﴾ الحج: ٥، وقوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ۝٧﴾ الشعراء: ٧. الزوج هو النوع، أي: نوع بهيج أو كريم، وعندما يكون الغرض من الزوج الذكر والأنثى، يقول تعالى: {زَوۡجَيۡنِ}؛ لأن الزوجين هما النوعان؛ نوع الذكر ونوع الأنثى، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩﴾ الذاريات: ٤٩. وقد دل علم الحياة على أن الكائنات الحية تنقسم إلى ذكر وأنثى، سواء في الحيوان والنبات، وقد يكون الذكر والأنثى في الزهرة الواحدة أو الشجرة الواحدة أو في شجيرات، ويتم التلقيح إما بالريح أو الطير، وسبحان الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

وخلق الأزواج ظاهرة مطردة في الأحياء كلها، النبات فيها كالإنسان، ومثل ذلك غيرهما. قال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ۝٣٦﴾ يس: ٣٦.

فالتزاوجُ بين كلِّ شيءٍ أمرٌ نوَّهَ عنه القرآنُ الكريم قبل أن تبرهن عنه القرائن العلمية الحديثة بقرون بعيدة.

وكثيرا ما يتساءل الإنسان عن السبب الذي من أجله خلق الله حشرات غريبة، وعن فوائدها.. ألا إنه سيقف مشدوها كما وقف أحد العلماء عندما عرف

دور هذه الحشرات في نقل بذور اللقاح لإتمام عملية التزاوج في النبات فأقرَّ بأن هذا العملَ مِن معجزات الله".(١)

٣- آلية الإنبات والماء كمصدر حياة:

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾﴾ لقمان: ١٠.

الماء عنصر أساسي لعملية الإنبات، كما أثبت العلم الحديث (الماء ينشط الإنزيمات ويحفز انقسام الخلايا)، فبدون الماء تبقى البذور خاملة مهما طال الزمان.

"دور الماء في الحقيقة أخطر وأبعد مدى من هذا الظاهر الذي يخاطب به القرآن الناس عامة، فقد شارك الماء ابتداء – بتقدير الله – في جعل تربةِ الأرض السطحية صالحةً للإنبات، إذا صحَّت النظريات التي تفترض أنَّ سطح الأرض كان في فترة ملتهبًا ثم صلبًا لا توجد فيه التربة التي تنبت الزرع، ثم يتعاون الماء والعوامل الجوية على تحويلها إلى تربة لينة". (٢)

٤- التنوع النباتي: قال تعالى:

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ الرعد: ٤.

(١) ينظر: مملكة النبات كما يعرضها القرآن ويصفها ص(١١٦)، لحامد صادق قنيبي، الناشر: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الطبعة: السنة الحادية عشر – العدد الثالث – ربيع الأول ١٣٩٩هـ.

(٢) ينظر: مملكة النبات كما يعرضها القرآن ويصفها ص(١١٠).

نفس الأرض والماء، لكن تنبت أنواعًا مختلفة من النباتات، تختلف في الطعم والرائحة والشكل.

يشير إلى التكوين الجيني المتنوع والاختلاف في امتصاص العناصر.

قال الزخشري: "قِطَعٌ مُتَجاوراتٌ بقاع مختلفة، مع كونها متجاورة متلاصقة: طيبة إلى سبخة، وكريمة إلى زهيدة، وصلبة إلى رخوة، وصالحة للزرع لا للشجر إلى أخرى على عكسها، مع انتظامها جميعا في جنس الأرضية. وذلك دليل على قادر مريد، موقع لأفعاله على وجهٍ دون وجه.

وكذلك الزروع والكروم والنخيل النابتة في هذه القطع، مختلفة الأجناس والأنواع، وهي تُسقى بماء واحد، وتراها متغايرةَ الثمرِ في الأشكال والألوان والطعوم والروائح، متفاضلةً فيها". (١)

٥- وظيفة النبات في توازن الحياة:

النبات يُنتج الأكسجين من خلال عملية البناء الضوئي – وهي ضرورية لبقاء الإنسان والحيوان – يُنتج الغذاء ويشكل الحلقة الأولى في السلسلة الغذائية.

"قدرة الخالق سبحانه الذي أخرج كل نبت في هذه الأرض، وفي خلقه دقة وإحكام وتقدير لا يزيد أو ينقص، وقد وصفه القرآن الكريم بأنه {مَوْزُونٍ} ، وفيه دليل على التناسق في الخلق الدال على الحكمة الإلهية البالغة، والقدرة العجيبة التي جعلت كل شيء بمقدار، وتزن كل موجود بميزان، بحيث تتحقق فيه المنفعة التي أرادها الله لعباده؛ قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا

(١) تفسير الزمخشري (٢/٥١٢)، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧هـ.

مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ١٩ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ٢٠ ﴾ الحجر: ١٩ – ٢٠.

وقوله: {مَوْزُونٍ} (وزن ميزان الحكمة، وقدر بمقدار يقتضيه لا يصلح فيه زيادة ولا نقصان)؛ ولذلك أتبعه بقوله: "أ ثر ئز ئم ؛ لأن ذلك يحسب بحسب الانتفاع بعينه".[1]

رابعا: الأثر الروحي والوجداني للنبات في القرآن الكريم:

١- الشعور بالخشية والخضوع لله؛ وذلك بالنظر والتأمل في قدرة الله، فعندما يرى الإنسان كيف يخرج النبات من بذرة صغيرة في ظلام الأرض، ويكبر ليعطي ثماره، يشعر بعظمة الخالق، فتتولد في قلبه الخشية والخضوع لله، قال تعالى: ﴿ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٩٩ ﴾ الأنعام: ٩٩.

٢- الإحساس بالرحمة الإلهية: النبات هو رزق يسّره الله لعباده: طعام، دواء، زينة، ظلّ... وهذا يزرع في النفس مشاعرَ الامتنان والمحبة لله، قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ٩ ﴾ ق: ٩.

٣- الشعور بالأمل والسكينة: مشهد إخراج النبات من الأرض بعد المطر، بعد أن كانت يابسة، يعمّق في النفس الأمل في التجديد والحياة بعد الموت، ويمنح القلب راحة وسكينة، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٢٨ ﴾ الشورى: ٢٨، ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتَۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٣٩ ﴾ فصلت: ٣٩

(١) ينظر: مملكة النبات كما يعرضها القرآن ويصفها ص(١١٨).

٤- التذكير بالبعث والنشور: فالنبات يُستخدم كدليل على قدرة الله في إحياء الموتى، فيربط القلب بالآخرة، ويقوّي الإيمان باليوم الآخر، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٥٧﴾ الأعراف: ٥٧.

٥- إشعار الإنسان بجمال الكون وتوازنه: تنوع النبات، ألوانه، أشكاله، رائحته، يزرع في قلب الإنسان إحساسًا بالجمال والإبداع الإلهي، ويُنعش وجدانه بالحب والتأمل.

قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ٢٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٞ ٢٨﴾

الخاتمة

- في ختام هذا البحث، نجد أنَّ سورة الأعلى تبرز بوضوح العظمةَ الإلهيةَ في خلق الكون وتنظيمه، وتوضح لنا بشكلٍ عميقٍ الهدايةَ الكونية التي يهيئها الله لعباده من خلال آياته الكونية التي تشمل مختلف مظاهر الطبيعة.
- إن القرآن الكريم – من خلال هذه السورة المباركة – يدعونا للتفكر في ملكوت الله، ويحثنا على التأمل في النظم الكونية التي تَسير بها المخلوقات من حولنا، فما من شيء في هذا الكون إلا وقد خُلق بحكمة بالغة، وبتقدير إلهي دقيق.
- تبدأ السورة بالتأكيد على تنزيه الرب الأعلى، وعلى قدرة الله الكاملة في خلقه وتدبيره: {الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى}، هذه الآية تدل على الخلق المتقن والموزون لكل مخلوق في هذا الكون، من أدق التفاصيل في الذرة إلى أوسع المجرات، ثم تتوالى الآيات لتُظهر نظام الله المتكامل في الكون: {وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى}، حيث يبيّن الله ﷻ كيف أن تقديره لكل مخلوق يجري على أفضل وجه، هاديًا إياه إلى ما يحقق له الاستقرار والنمو.
- من هنا، نستطيع أن ندرك أن كل ما يحدث في هذا الكون ليس عبثًا؛ بل هو تقدير محكم وموحد من خالق قادر.
- وتستمر السورة في تصوير مشهد الطبيعة والنباتات، كما ورد في الآيات {وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى}، حيث تبيّن لنا كيف أنَّ الله ﷻ يُخرج النبات من الأرض، ويجعله في حالة من الإشراق والنضارة، ثم يتحول إلى جفاف بعد أن يؤدي دوره في الحياة. هذا المشهد الكوني ليس فقط وصفًا لطبيعة الكون؛ بل هو درس عميق للإنسان في كيفية التفاعل مع ما يحيط به من تغيرات طبيعية وحياتية، وفي تقبل فترات الضعف بعد القوة، تمامًا كما تمر النباتات بمراحل النمو والانحلال.

- إن هذه الآيات، بكل تفاصيلها، تقدم لنا دليلًا قاطعًا على أن كل جزء من أجزاء الكون يعبّر عن قدرة الله اللامتناهية في الخلق والتقدير، ويجب على المؤمن أن يتأمل في هذه الآيات الكونية ليزداد يقينًا في أن الله هو الخالق المدبر، وأن كل شيء في هذا الكون يسير وفق مشيئته وحكمته.
- كما أن التفكر في هذه الآيات يجعل الإنسان يستشعر عظمة الخالق، ويدفعه إلى الإيمان بضرورة التقوى والعبودية له، فكما أن الله قد هدانا إلى العلم والتفكر في خلقه، كذلك يجب أن نكون نحن على استعداد للاعتراف بعجزنا أمام عظمة الله، وتوجيه قلوبنا وعقولنا إلى التفكر في آياته، والاعتبار بمخلوقاته، فالكون كله يسير بتقدير الله وتوجيهه.
- وفي الختام، فإن ما ورد في سورة الأعلى من آيات كونية ما هي إلا دعوة صادقة للإنسان للتأمل في عظمة الله، ولإدراك أن كل شيء في هذا الكون له هدف ودلالة، وأنه لا يوجد شيء يحدث عبثًا أو صدفة. وكلما تأملنا في هذه الآيات الكونية، كلما زاد إيماننا وازداد شكرنا لله ﷻ على نعمه التي لا تُحصى.
- أرجو أن يكون هذا البحث قد ساعد في إبراز الهداية الإلهية التي تميز الكون، وكيف يمكن للإنسان أن يقترب من الله من خلال التفكر في خلقه.

أهم نتائج البحث:

- النتائج الرئيسة التي تم التوصل إليها في البحث تتضمن:

١- التسبيح في القرآن الكريم ليس مجرد ذكرٍ لفظي؛ بل هو عبادة شاملة تشمل الكون بأسره، ودلالات التسبيح الكونية تجعل الإنسان يدركُ عظمةَ الخالق، ويحثه على الانسجام مع هذا النظام المتكامل. كما أن التسبيح يعكس وحدة المخلوقات في تعظيم الله وتقديسه.

٢- إثبات قدرة الله في خلق وتقدير الكون، فكل آية في السورة تدل على قدرة الله الفائقة في خلق الكون وتقديره للمخلوقات، فالله ﷻ هو الذي يخلق ويقدر كل شيء في هذا الكون وفقًا لحكمة بالغة.

٣- الهداية الإلهية في هذه الآيات لا تقتصر على الإنسان؛ بل تشمل جميع المخلوقات، من خلال أن الله هو الذي يهدي ويوجه كل مخلوق إلى مصيره.

٤- التوازن الدقيق بين الخلق والإفناء في الكون، فمن خلال الآيات نلاحظ كيف يخلق الله ويرزق ثم يفضي الأمور إلى نهايتها، مما يعكس النظام الإلهي المتقن الذي لا يحدث فيه شيء إلا بتقدير من الله.

٥- تدعو الآيات في سورة الأعلى إلى التفكر في آيات الله الكونية والتأمل فيها كدليل على عظمة الله وقدرته، مما يُعزِّزُ الإيمانَ ويزيد من يقين المؤمن بوجود الله وحكمته.

التوصيات:

١- ينبغي للمؤمن أن يتعمق في التأمل والتفكر في آيات الله في الكون، خاصة الآيات الكونية التي تطرقت إليها سورة الأعلى، كما يمكن للمسلمين الاستفادة من هذه الآيات لتعزيز إيمانهم بالله وقدرته المطلقة على الخلق والتدبير؛ لذلك يُوصى بتطوير برامج تعليمية وندوات تهدف إلى تعزيز ثقافة التفكر في خلق الله عبر دراسة الآيات الكونية في القرآن الكريم.

٢- يجب على الباحثين والطلاب – في مجال العلوم الطبيعية والشرعية – أن يعمقوا العلاقة بين العلم والإيمان، بحيث لا يُفصل العلم الطبيعي عن المعرفة الدينية، فإن آيات الله الكونية في القرآن هي دليل حي على قدرة الله وعظمته، ويمكن أن يتم استثمار هذه الآيات في التعليم الأكاديمي، لتمكين الأجيال القادمة من رؤية الرابط بين الاكتشافات العلمية والإيمان بالله.

٣- يمكن للمختصين في مجال الدعوة الإسلامية استخدام هذه الآيات الكونية كأداة فعالة لجذب الناس إلى الإيمان بالله، فالتفكير في خلق الله – كما جاء

في سورة الأعلى – يمكن أن يكون مدخلًا قويًا لدعوة غير المسلمين إلى الإسلام، من خلال توضيح عظمة الخالق وعظمة الخلق الذي يُظهره في الكون.

٤- يوصى بتعميق الوعي الجماعي حول مفهوم الهداية الإلهية كما تظهر في الآيات الكونية، وذلك من خلال تنظيم ورش عمل ودروس دينية تسلط الضوء على دور الهداية الإلهية في حياة الإنسان، وكيف أن كل مخلوق في الكون يسير بتوجيه الله ووفق مشيئته. هذا سيساعد الأفراد في تقوية فهمهم لدورهم في الكون وضرورة الامتثال لأوامر الله.

٥- يُوصى بإجراء مزيد من الدراسات حول العلاقة بين الكون والإنسان وفقًا لما جاء في سورة الأعلى، وكيف أن الإنسان يعد جزءًا لا يتجزأ من هذا الكون المتوازن الذي خلقه الله بعناية. يمكن أن تساهم هذه الدراسات في بناء وعي إنساني يقدر دوره في الحفاظ على البيئة وحماية الطبيعة، استجابة للهداية الإلهية.

٦- يُوصى بتطوير برامج ثقافية تهدف إلى تعزيز الوعي البيئي في المجتمعات الإسلامية من خلال فهم الإنسان للعلاقة بين خلق الله في الطبيعة، وكيف أن كل جزء في الكون مُسير بحكمة الله، كما يمكن أن يتحقق وعي أكبر بأهمية الحفاظ على البيئة وحمايتها.

وبعد ... فإنِّي لا أقولُ إنِّني قد أَعطيتُ هذا البحثَ بعضَ ما يَسْتَحِقُّه، فما كانَ في هذا البحثِ مِن حَقٍّ وصَوابٍ فمِن اللهِ وحدَه لا شَريك له – وله الحمدُ والمِنَّة – وما كان فيه من خطأ أو تَقْصيرٍ فمِن نَفْسي ومِن الشَّيطان، وأستغفرُ اللهَ مِن ذلك، وأَسأَلُه ﷻ التوفيقَ والسَّدادَ لصالحِ الأعمال، إنَّه سميعٌ مُجيب، وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلى اللهُ وسلم وبارك على نَبِيِّنَا محمَّدٍ وعلى آلِهِ وصحبِه أجمعين.

فهرسُ المراجعِ والمَصادر

أولًا: كتبُ التَّفسِير، وعلوم القرآن

١- أسرار ترتيب القرآن لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، الناشر: دار الفضيلة للنشر والتوزيع.

٢- أسرار ترتيب القرآن، المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)،الناشر: دار الفضيلة للنشر والتوزيع.

٣- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمَّد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى : ١٣٩٣هـ)، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت – لبنان، عام النشر: ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٤- البحر المحيط في التفسير، المؤلف: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ)، المحقق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر – بيروت، الطبعة: ١٤٢٠ هـ

٥- البيان في عد آي القرآن لعثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الداني (المتوفى: ٤٤٤هـ)، المحقق: غانم قدوري الحمد، الناشر: مركز المخطوطات والتراث – الكويت، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.

٦- التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» لمحمَّد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ)، الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ.

٧- تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم المؤلف: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: ٩٨٢هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت

٨- التفسير الحديث [مرتب حسب ترتيب النزول] المؤلف: دروزة محمد عزت، الناشر: دار إحياء الكتب العربية – القاهرة.

٩- تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م
١٠- التفسير القرآني للقرآن، المؤلف: عبد الكريم يونس الخطيب (المتوفى: بعد ١٣٩٠هـ)، الناشر: دار الفكر العربي – القاهرة.
١١- تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة) لمحمَّد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي (المتوفى: ٣٣٣هـ) المحقق: د. مجدي باسلوم، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٢٦ هـ- ٢٠٠٥ م.
١٢- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، لِوَهْبة بن مصطفى الزُّحيلي، الناشر: دار الفكر المعاصر – دمشق، الطبعة: الثانية ، ١٤١٨ هـ.
١٣- التيسير في أحاديث التفسير، المؤلف: محمد المكي الناصري (المتوفى: ١٤١٤هـ) الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م
١٤- جامع البيان في تأويل القرآن لمحمَّد بن جرير بن يزيد بن كثير، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ) المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.
١٥- الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش،الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م.
١٦- الدر المنثور، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ) الناشر: دار الفكر – بيروت.
١٧- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي(المتوفى: ١٢٧٠هـ)، المحقق: علي عبد

الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ.

١٨- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ.

١٩- اللباب في علوم الكتاب، لأبي حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (المتوفى: ٧٧٥هـ)، المحقق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان، ط: الأولى، ١٤١٩ هـ –١٩٩٨م.

٢٠- مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ) الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ.

٢١- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، المؤلف: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ)، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة

ثانيا: كتبُ الحديثِ:

١- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه صحيح البخاري، لمحمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ

٢- سنن الترمذي، لمحمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ) تحقيق وتعليق:أحمد محمد شاكر

(جـ ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ ٤، ٥)، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة: الثانية ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م

٣- مسند الإمام أحمد بن حنبل، لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م

٤- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، لمسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

ثالثا: كتبُ اللُّغةِ والأدبِ والمَعَاجِمِ:

١- تهذيب اللغة، لمحمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ)،المحقق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى ٢٠٠١م.

٢- لسان العرب، المؤلف: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى(المتوفى: ٧١١هـ)، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ

٣- المعجم الوسيط، المؤلف: مجمع اللغة العربية بالقاهرة
(إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار)، الناشر: دار الدعوة

٤- معجم مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرَّازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٥- المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢هـ)،
المحقق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٢ هـ.

رابعا: كتبُ أخرى:

١- الإسلام في عصر العلم/ محمد أحمد الغمراوي، القاهرة، دار الإنسان، ١٩٧٣م.

٢- الإعجاز العلمي في القرآن الكريم المرحلة: ماجستير، المؤلف: مناهج جامعة المدينة العالمية، الناشر: جامعة المدينة العالمية.

٣- الإعجاز اللغوي والبياني في القرآن الكريم، جمع وإعداد، الباحث في القرآن والسنة، علي بن نايف الشحود

٤- الآيات الكونية دراسة عقدية، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة، كلية أصول الدين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – الرياض، إعداد: عبد المجيد بن محمد الوعلان، إشراف: عبد الكريم بن محمد الحميدي، الأستاذ المشارك، العام الجامعي: ١٤٣٢ هـ / ١٤٣٣هـ.

٥- قضايا جدلية في الاضطرابات النفسية ص (١٣٦) وما بعدها. للدكتور: شريف طه يونس. مركز العلم والعمل للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى.

٦- مملكة النبات كما يعرضها القرآن ويصفها: لحامد صادق قنيبي، الناشر: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الطبعة: السنة الحادية عشر – العدد الثالث – ربيع الأول ١٣٩٩هـ.